روايات الهلال

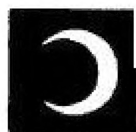
416

المنحنى الخطر

خيري شلبي

REWAYAT AL-HILAL
No. 415 — July 1983





روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمى

الغـلاف والرســـوم الداخليــة
بريشــة الفنانة سميحة حسنين

المنحنى الخطر

مجموعة قصص

بقلم

خيرى شلبى



دار الهلال

إهداء

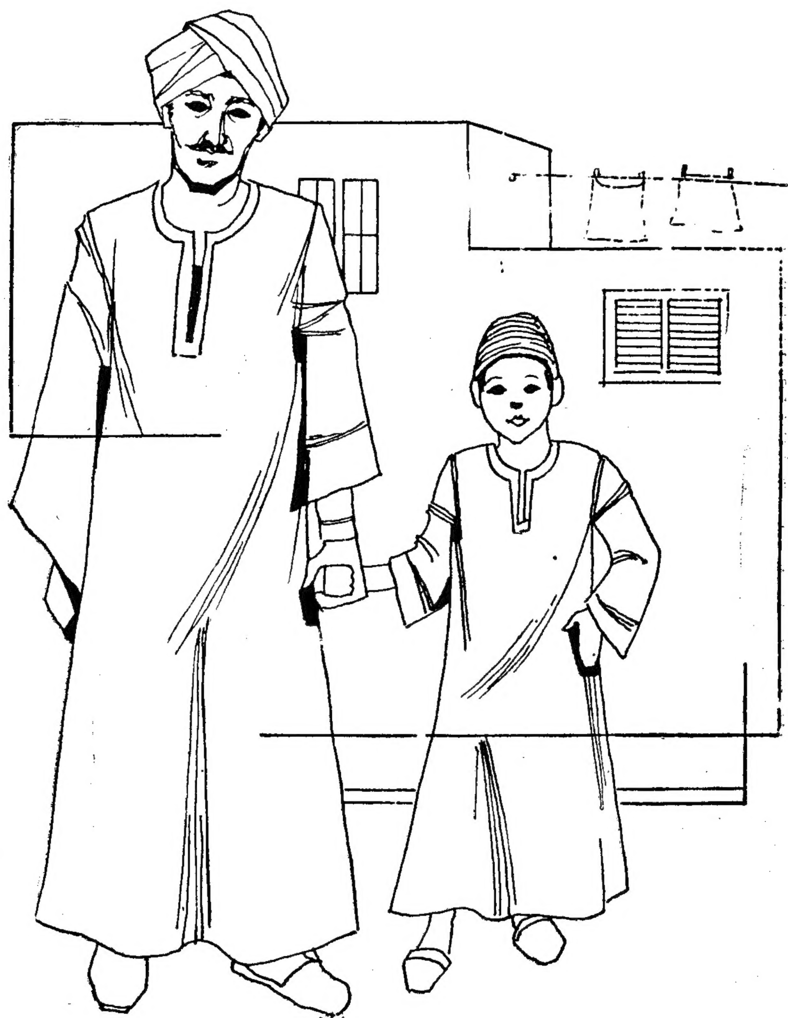
إلى أخي الحبيب « محمد » .. الذي كان صبيا غض الإهاب .. وذهب إلى الحرب .. فلم يأتنا خبره ! .. لعله في الغيب يعرف ماجرى ! .. ؟ ..

أخواك

« خيرى »

١٩٧٩

الالتحاق بالحياة .



الالتحاق بالحيـــاة

قال الرجل وهو يمسك يدى بيده فيما نستعد لعبور الشارع العمومى :

ـ فى هذه الحودة بالضبط .. مات أبوك .

اقشعر بدنى . وبدا على الرجل انه ندم ..

ولم تكن أمى قد خلعت ثوب الحداد بعد . كانت لا تزال تطوق وجهها بالطرحة السوداء .. وكان وجهها لا يزال قمرا يطل من طاقة الدار ينير الليالى المظلمة .. حين أخرجت من عبها منديلا أسودا فكت عقدته بأسنانها . ثم قالت لى بينما تعطينى جنيها تهرأ من كثرة تطبيقه :

ـ هذا الرجل من أعز أصدقاء المرحوم .. اذهب اليه فى مصر .. وسوف يجد لك شغلا . وكان نهر من العربات يتدفق فى الشارع العمومى ، ويملأ الدنيا أزيزا وزئيرا ووشيشا وخطرا ..

ـ يا له من يوم ..

قال الرجل . ثم شدد على يدى :

ـ كان المرحوم قد يأس من الانتظار بجوار الراديو . وعرف أن ابنه ليس بين الاسرى ، وليس بين الشهداء وليس بين الاحياء .. فقام وقال انه ذاهب لينام . واننا سنتقابل فى الوردية ، كنا دائما فى وردية واحدة . هو أمام الفرن يباشر الخبيز وأنا بجواره أباشر العجين . استغربت لماذا يقول لى هذه الكلمة فى هذه المرة ؟ .

.. وكانت أمى تجلس متقرفصة فى وسط الدار مطفأة العينين ، وأنا متقرفص بجوارها على الارض أرقب سيل دموعها المتدفق . وأعجب من أين تأتى هذه الدموع . وكان عكاز جدتى المتقرفصة فوق المصطبة يروح ويجىء أمامنا ينكش الارض . وصوتها يجىء دون أن تحرك شفتيها . مثل خرير المياه من عيون الساقية :

ـ وده قبر مين اللى البقر هده ؟

ده قبر الغريب اللى فاتوه أهله .

ـ وده قبر مين اللى البقر داسه ؟

ده قبر الغريب اللى فاتوه ناسه .

فصرخت أمي فجأة ، كصريخ القـــاطرة على مشارف البلدة ، فظننت أن جثة أبى قد عادت مرة أخرى . فانتفضت واقفـــا . أجعر . أنظر حولى . اجرى الى الباب وانظر . فلا أرى سوى نهاية الحارة . وفى آخرها بقية بيوت البلدة . التى تتهالك فى ظل جدار السراى . الذى علقت عليه لافتة مكتوب عليها بخط كبير « الاتحاد الاشتراكى العـــربى » وكنت أتذكر اللافتة النحاسية الباهتة على باب هذه السراى وقد كتبت فوقها عبارة « استراحة الخاصة الخديوية » ولم أكن أعرف شيئا عن هذه السراى ولا عن اللافتتين ، ولا عن هذه البلدة . وكل ما أعرفه انها بلدتنا وان هذه الدار دار أمى . وان هذه العجوز هى جدتى أم أمى . واننا نجىء من مصر فى كل عيد لنزورها . ونمكث عندها أياما . يعود بعدها أبى ويشحننا فى القطار بعد أن نكون قد مشينا دهرا طويلا . لنعود الى دارنا فى حارة مشابهة ولكن فى مصر ..

— ابن المرحوم !

هكذا قال الرجل لصاحب كشك السجائر الذى وقفنا بجواره . أحسست بسخونة فى أذنى ، وكانت الأرض تتزلزل تحت قدمى . ونهر العربات موج متلاحم لا حدود له وكلمـــا نظرت فوق سطح عربة رأيت الشمس تختنق فيه مثلما يختنق وجه أمى فى الطوق الاسود . وكان صاحب كشك السجائر ينظر الى وعينه تهرب من عينى ..

— مرحوم من ؟

وهز رأسه ...

تناول الرجل منه « خمسة بلمونت » دسها فى جيبه بسرعة :

— الاسطى عمران الفران .. الذى مات أمامك منذ ثلاثة أعوام .

هب واقفا :

— أووه .. ه .. لابد أنك محمود . كان دائما يتحدث عنك .

ثم خرج من الكشك . أقبل نحوى . فاذا به يتأبط عكازا . وكنت اريد أن أبكى . ولكن دموعى تسربت الى أنفى ..

— لقد كبرت . شد حيلك .. البركة فيك .

وصار يتساند على العكاز فيما يسلم على بيد ويربت بالاخرى على كتفى . ثم انه استدار وجر دكة خشبية . سحبنى من أبطى بيد حنونة :

ـ اجلس .. اجلس يا محمود .. ألست حقا محمود ؟
قلت : نعم .. ثم اضطررت للجلوس .
ـ اقعد يا أسطى .
تقدم الرجل وجلس بجوارى على الحافة مبتسما :
ـ ربنا يوفقنا ونجد له شغلة يتعيش منها .
امتدت يد صاحب الكشك نحوى بزجاجة كازوزة تقطر منها المياه :
ـ طبعا لابد أن نجد له شغلة .
أحسست بشيء من الفرح بقوله : نجد .. اذ أن شغلتى صارت مسئولة من اثنين . صرت أنظر فى وجهه . ربت على كتفى .
ـ أشرب . كله من خير المرحوم .
رفعت الزجاجة ورحت أشرب . كانت المياه مالحة . مالحة . ولكنها كانت ترويني .
ـ هل عاد أخوك الكبير ؟
بدا الاهتمام على وجه الرجل :
ـ صحيح ألم يعد أخوك بعد ؟
قلت : لا .
اكفهر صاحب الكشك :
ـ كيف .. ما عاد هناك احد لم يعد .
ـ نعم .. الكل عاد ومن لم يعد عاد ايضا !
ـ ولكن ألم يتصل بكم أحد ؟
قلت : لا .
ـ وأنتم .. ألم تسألوا ؟
قلت : لم تعرف أمى كيف تسأل .
ـ وماذا فعلت ؟
ـ استعوضته عند الله .
ـ المعوض مخلف .
ـ عوضه كريم .
ـ لها الجنة .
ـ البركة فيك .
ولم أكن أتذكر أخي الكبير هذا . كل ما اذكره ان شابا أسمر الوجه مثلى . كان يطرق بابنا فى الليل فجأة .. فنهب كلنا . وتعانقه

أمى وتقبله . ويحملنى هو ويقبلنى . ويعطينى جوزة الهند والطوفى ثم يخلع حذاءه الكبير الغليظ ويدفعه تحت الكنبة . ويخلع ثيابه الصفراء . وتحضر له أمى جلبابا من الدولاب وتسحب وابور الغاز من تحت السرير وتشعله وتقلى بيضتين فيأكل ويعطينى لقمة مغمسة ونظل ساهرين الى أن يجىء أبى أو يقول هو انه ذاهب اليه . فاذا استيقظت فى الصباح لا أجده ..

جاء ناس الى الكشك وانصرفوا يبرطمون . وعاد صاحب الكشك يتوكأ :

ــ « كان المرحوم يعرف ان هذه هى حودة الموت . اذ يجىء لها الخطر من كل هذه الجهات ، أنظر أنا نفسى فقدت ساقى فيها . من فضل الله وكرمه على لم أمت . وكانت العربة تابعة للقطاع العام وهذا من حسن حظى . فأخذت تعويضا وافتتحت هذا الكشك وكان المرحوم قادما من عند هذا الجراج أتراه ؟ خلفك بالضبط .. وكان عليه أن ينظر ليختار أوسع مساحة بين عربتين » .

ثم تنهد . ظلت يده متوقفـــــة فى اتجاه الرصيف الذى خلف ظهرى . أخذت ألوى عنقى فى جزع محاولا أن أرى بالضبط البقعة التى وقف فيها أبى ينتظر قدره . لكننى اعتدلت . فرأيت صاحب الكشك يهز رأسه مكشرا وجهه كطفل لا يريد أن يأخذ الدواء .

اعتدل الرجل بجوارى :

ــ كنا على المقهى التى جئتنى فيها حينما انصرف المرحوم وسمعنا زمجرة الفرامل .

واعتدل صاحب الكشك :

« لم يستغرق الامر أكثر من ثانية . لحظتها كان الزبون يقف حيث نقف الآن . وكنت أراه واقفا على الرصيف وكنت أرى فى هذه المرآة عربة قادمة من خلف الكشك من أعماق الشارع . شغلنى الزبون برهة واحدة . هى التى استغرقها المرحوم فى الموت . نعم . كنت أهم برفع ذراعى وأخرجه من النافذة لأنبه على المرحوم أن يتأنى فى العبور لـكن القدر كان أسرع . فما أدرى الا والرعد يزلزل الدنيا والمرحوم محشور بين ثلاث عربات فى المرآة » .

« دفعت الترابيزة . جريت . كـل من كان على المقهى انطلق يجرى . لكن قلبى انقبض . ولما وصلت كان الزحام قد انكفأ على

الجثة وكان لابد أن أعرف من هو . لم ادر ما سر هذه القوة التى حطت على .. اذ دفعت كتفى بين الاجســاد فألفيت على الارض عشرات منها . نفذت برأسى . رأيت أربع عربات . داخلة فى بعضها كالصليب .. المعووج » .

« أف ف ف ف .. رأيت وجهه فى المرآه . ياه .... ه ..اننى لا استطيع نسيان المنظر . العربة التى كانت مقبلة فى المرآة بسرعة جعلته يرتد مذعورا من منتصف الشارع . فدهمته من خلفه عربة كانت قد ظهرت فجأة من خلف الزجاج وحودت فى نفس الشارع . وكانت العربة التى أخافته وتفاداها قد ارتبكت وفرملت فى الحال . لتلبس فى عربة قادمة خلفها بنفس السرعة وانعوج بوزها ليلبس فى بوز عربة قادمة من الشارع العمومى فى الاتجاه الطوالى . كلهـا عربات مسرعة . وكل سائق يريد أن يسرق من الطريق منفذا له بسرعة . أف ف ف ف ... » .

ــ « أنا عرفت المرحوم من يده . ولهذا ضربت الرجل فى صدره بالبونية حين رأيت قدمه تدوس على اليد المنطرحة على الارض . أخذت أربت على اليد . كانت الدبلة المعدنية الرفيعة تلتف حـول أصبعه وكان الاسد الاخضر المسك سيفا بيمناه الامامية ينكمش وقد هبطت به العروق » .

ــ « أف ف ف ف .. خرجت من الكشك . قفزت الى قلب الشارع . صرخت فى الواقفين أن يرفعوا العربة الاولى التى كانت السبب . كنت قد رأيت رأس المرحوم تحت عجلتها الخلفية ، غارقة فى بحيرة من الدم الاسود المختلط بالزيت . كانت لحظــة ــ الله لا يعيدها ــ وقعت من طولى بسببها فظللت راقدا فى الفراش جمعة بحالها » .

ــ « لم يكن من عادته أن يقوم بسرعة ، ومرة واحدة . كان فى العادة يبدى الرغبة فى القيام ثم يشرب حمية . ويخبط ركبتيه بكفيه علامة على انه سينهض حالا . لكنه يبدأ فى السؤال عن بعض الاشياء فنجيبه . فيطلب حمية أخرى حتى ننتهى من الكلام . وفى الآخر يقف . يحكى نكتة أو نكتتين ولا يضحك أبدا . وبعد ان يودعنا ويمشى نظل نسمع صوته فى الشارع مدة طويلة . ففى الشارع ناس كثار عليه أن يعطيهم حقهم اليومى من الشتم أو التحية . ولم نكن نستطيع التفريق بين شتائمه وتحياته .. لكن ضحكاته تظل تتباعد

شيئا فشيئا الى أن تختفى نهائيا . فى تلك الليلة ، هب واقفا ولم يقل سواها : نتقابل فى الوردية . وخرج بسرعة ثم اختفى . ومرت برهة طويلة كنا خلالها نترقب صوته فى الشارع . ولكن الهدوء المؤقت انفجر مدويا . فانقبضت قلوبنا . واندفعنا نجرى » .

ـ « أف ف ف .. لست أعرف كيف جاءت قدمه من منتصف الشارع حتى باب الكشك . قدم بحالها واقفـــة فى الشبشب الكاوتشوك . قلت لمن جاء يحملها ويلمها بجوار الجثة . لو أخذتم بصماتها ستجدونها طيات فوق بعضها . فلهذه القدم حيز محفور فوق هذه الارض ولكن العربات تدوسها ليل نهار » .

ـ « كنت أعرف أنهم سيغطونه بالجـــرائد . فخلعت جلبابى وطرحته فوقه . وجمعت أطرافه المتناثرة لم يضع منها ظفر واحد . وكنت أعرف ان فى محفظته ستين قرشا أخذها من صاحب الفرن ليلتها . وكنت أعرف أن محفظته فيها قسيمة الزواج والبطـــاقة العائلية وخاتمه الذى يوقع به على كشوف القبض . والذى كان يمده بالمحفظة كلها حيث هو مربوط فيها بفتلة دوبارة . كان صدره قد تهشم واختفى الصديرى بين الضلوع . وطرف المحفظة غائر فى الدماء والامعاء وحين أمر الضابط اخراجها تذكرت ان المرحوم كان يريد أن يبعث أحد صبيان الفرن الى البيت يحمل الستين قرشا . غير ان صاحب الفرن كان يجلس لنا مثل قرد قطع . وأذكر اننى قلت له : استأذن لك صاحب الفرن . ففكر قليلا ثم قال : لا داعى للجمائل » .

ـ على فكرة لم تكن ستين قرشا .

ـ رأيتها ؟

ـ اذ كانت ستين قرشا . فقد نقصت بريزة . هى بريزتى . وقد وصلت الى . كان المرحوم قبلها بيوم أخذ منى ورقة دخان معسل وشلنا يركب به . وكان وهو واقف على الرصيف الآخر قد أخرج محفظته وسحب منهـــا بريزة فضية أبقاها فى يده . نعم تذكرت هذا . حين رأيت البريزة تكر على الارض ويوقفها الرصيف أمام الكشك . وهذه هى البريزة . حلفت بالطـــلاق الا أسلمها للبوليس أو أصرفها . فرحت بأنها معضوضة فأبقيتها . وكلما لمستها تأكدت أن فى الدنيـــا ناس تدفع الدين وهى جثة مبعثرة تحت العجلات .

ـ يا اخى لا أعرف ما السر فى هذا . قبل ذلك لم أكن أطيق المرور من هذه الناحية ولا زلت أنقبض كلما مررت فيها . ومع كل فان قدمى تجىء كل يوم الى هنا . ولو جئت فى اليوم الواحد عشرين مرة فاننى فى كل مرة لابد أن أرتعش وأعبر الشارع متلويا فى مشيتى . كأن الجثة لا تزال فى مكانها ..

ـ كان الله فى عونى . لقد ظلت سجادة الدماء مفروشة على الارض شهورا طويلة . وكل يوم تهبط الشمس فوقها وتصلى ركعتين لله . ثم تغيب حاملة على جبينها مسحة حمراء ..

ـ خمسة بلمونت لو سمحت .

وانتصب العكاز ودق الارض حاملا صاحب الكشك الذى توقف مستديرا لرجل قصير ذى شوارب تتدلى حول شدقيه :

ـ جراجكم يجلب لنا المصائب . يقف كالخازوق فى المنطقة . فيلخبط المرور ويزحم الدنيا .

ـ احمد ربنا . لولا وجودنا ما بعت شيئا يا أعرج الكلب .

ـ يغور البيع من وجوهكم .

ـ كل ذى عاهة جبار يا أعرج يا مفترى .

وكانت العربات المسرعة . تطارد المارة وتكنسهم من أمامها . والشارع ممتلىء بالجزع وكنت أحس انها تمشى فوق جثتى .

ـ اسمع يا أبا الشوارب .

ـ سمعان .

ـ اتعرف هذا الوجه ؟ انظر اليه جيدا .

صار الرجل القصير ذو الشوارب يبحلق فى وجهى ويكشر . ويفكر ..

ـ أليس يذكرك بأحد ؟

ازدادت بحلقته فى . راح يهرش فى قفاه .

ـ انه محمود .

ـ محمود من ؟

ـ ابن المرحوم .

ـ مرحوم من ؟

ـ الذى مات هنا منذ ثلاث اعوام ..

ـ الاسطى عمران ؟ يا هو .. و .. و .. ه . البقية فى

حياتك يا محمود .. البركة فيك يا ابنى تزاحمت العربات فوق جثتى . ولم أكن أقوى على الصراخ ..

ـ نبحث له عن شغلة .. ألا تساعدنا ينوبك ثواب ؟

قالها صاحب الكشك وهو يغمزه بالسجائر .. وصار الرجل القصير ذى الشوارب يحملق فى مفكرا وقد اتسعت عيناه :

ـ خلاص .. لا شأن لكما به .

صاحب الكشك يبتسم لاول مرة :

ـ لا نريد فك مجالس .

ـ أبو شوارب . رجل جدع وفيه الخير .. وله معارف .

وجه صاحب الكشك ينبض بالفرح :

ـ طبعا .. أهى عشرة أيام ؟ انها عشرة عمر .

ـ قم يا محمود معى .

هكذا صاح الرجل القصير ذو الشوارب . وكانت العـــربات لا تزال تنبح فوق جثتى فلم أقم .

ـ قم يا أبا حنفى .

ومد يده .. ليوقفنى .

ـ الى أين ستذهب به .. الا تقل لنا ؟

ـ الى الشغل طبعا . محمود خلاص امسك الشغل من الآن ! .. الحكاية وما فيها ان محمود جاء فى وقته . صاحب الجراج منذ شهور يبحث لى عن صبى يعاوننى فى غسلَ العربات ومسحها . ولأن محمود ابن حلال فقد جاء لوحده من غير ما نبعث له ..

ـ يا سلام .شفت النصيب .. !

ـ انها روح المرحوم .

ـ انه عمله الطيب .

ـ ربنا يجعلك عمار يا مصر .

يد على ذراعى . ارتعدت كانت يد الرجل القصير ذى الشوارب :

ـ ستأخذ فى الجمعة ثلاث جنيهات . وستبيت معى فى الجراج . وسوف تكون مبسوطا فقم معى لتسلم الشغل . وسأعلمك كيف تغسل العربات وتنظفها جيدا .

ولم أكن أستطيع القيام ..

قم معه يا محمود . انت ابن حلال وربنا بعت لك الشغل لحد عندك .

وكنت أنتظر من يلم أطراف جثتى ويضمها .

ـ وسوف نكون معك .

ـ وتجيء الكشك فى أى وقت وتطلب منه ما تشاء .

ـ انه لا يزال مكسوفا . فخل بالك منه .

ـ قلت لا شأن لكما به .. لقد صرت من الآن مسئولا عنه .

ورحت أرقب ظلا صغيرا يزحف على الارض بجوار ظل آخر عريض طويل .

الفـــرح



الفرح

صرخت لحظتها . انزعج الوجه العجوز وارتد عنى مكسوفا .
كذلك انزعجت أمى وتلقفتنى فى صدرها وراحت تربت على ظهرى
قائلة بصوت يشبه مواء القطط :

ــ متخافش ياحبيبى .. ده أبوك !

ولما كنت أحب كلمة أبى فاننى هدأت ورحت انظر للرجل خلال
دموعى وبربورى المنساب على شفتى ، أحاول أن أفهم منه ما معنى
كلمة أبى . كان وجهه عجوزا تملؤه التجاعيد كأرض محروثة .
رأسه كزلطة كبيرة ناعمة لا ينبت فوقها عشب ، عيناه واسعتان
تبرقان ولا تكفان عن الحركة ، كأنه كان يشتغل قاطع طريق .
التجاعيد المستطيلة المتجـــاورة انضغطت فى بعضها كطيـات
الثياب ، صار الوجه كله ابتسامة كبيرة تكشف عن فم بلا أسنان .
كانت نظراته الى هى الاخرى تبتسم . قرصتنى أمى قرصة خفيفة
حنونة وهمست فى أذنى :

ــ مش عيب يا واد .. حد يخاف من ابوه .. داهية تكسفك .

لحظتها كانت مكسوفة بالفعل غاية الكسوف . وكانت دائما تكلمنى
بهذه القرصة حتى صرت أفهم مغزاها وصرت لا أبكى من الها بل
ابكى مما أفهمه منها .

جرؤت فتقدمت خطوة من الرجل العجوز وكنت أنكس وجهى
فى الارض وأهرش باحدى يدى فى رأسى ، وبالاخرى أدعك عينى ..
ذلك أننى كنت قد صحوت من النوم فجأة فوجدت ثمة انقلابا رهيبا
قد حدث . آخر ما أذكره قبل هذه اللحظة أننى حين وضعت رأسى
على فخذاى واستسلمت للنوم كانت هى جالسة فى قاعة جدتى
التى أقول لها ــ مثلما تقول أمى : يا أمى . وكانت جدتى هذه
تجلس أمامها متكورة وقد راحت تمرر يدها على جسدى بورقة فيما
تتمتم بكلام منمق موزون . ورائحة البخور تتصاعد ، ونحن فوق
المصطبة الكبيرة التى تبتلع القاعة كلها ، نضع المخدة الكبيرة بجوار
رصيف الحمام ، الذى هو عبارة عن حوض مربع من ارض المصطبة

نفسها مبنى بالاسمنت ، له فى مواجهة الباب جدار يحجب قامة الانسان ، تنحدر منه ماسورة موصلة الى البلاص المركون تحتها لابتلاع ماء الاستحمام ..

آخر شيء رأيته فى العهد البائد كان خيال جدتى وهو يتلوى على الحائط مختلطا بخيال الدخان . بعدها استغرقت فى النوم ، فاذا بي أفتح عينى فجأة فأرانى فى هذه الحجرة المزخرفة بالالوان الزاهية ، ذات الشبابيك الزرقاء الطويلة والدرف الزجاج ، وحيث يوجد سرير من النحاس بعمدان ، وبه ناموسية منصوبة ، حولها داير حريرى مرسوم عليه أطفال بأجنحة ، وأثداء وقلوب ، كما يوجد « بوريه » كبير من الخشب بنى اللون لامع ، عبارة عن أدراج عريضة فوق بعضها لها أيد صفراء لامعة . على الحوائط خطوط مشدودة بينها دوائر حمراء وزرقاء وخضراء من كل لون ، على الارض سجادة تغوص فيها قدمى ..

الرجل العجوز — الذى قيل أنه أبى — يجلس على كرسى كبير ذى مسندين وظهر مرتفع ، يضع رجلا على رجل، يلم العباءة حول ساقيه كل لحظة فتشخلل المسبحة فى يده . أمى جالسة على الارض بجوار قدميه . ثمة شيء فيها قد تغير .. ألم أقل بأنه انقلاب رهيب ؟ .. ان جسدى ليرتعد كلما تذكرتنى لحظتها : فهذه السيدة التى صفرت فوق صفرها وانزاح المنديل الاسود عن رأسها فانفرد شعرها على كتفيها وتغير لون وجهها فاتضحت معالمه واتضحت عيناها واتضحت فيها أشياء كثيرة حتى، صرت أشك أنها أمى التى أعرفها .. وهذه النقلة التى لم أفهم لها معنى ، كل ذلك عاد فأرعدنى ، فارتددت من جديد قاصدا صدر أمى لارتمى فيه . وأغرق فى النوم من جديد فلربما انزاح هذا الكابوس المزعج ، لكننى أحسست كأن شوكا قد نبت فى صدر أمى ، فلأول وهلة سقطت عينى عليه ففوجئت بأنه ليس هو ذلك المترهل الذى كان من حقى أن أعبث به منذ وقت قريب ، وبدا لى جذعها — حتى وهى جالسة — أطول مما عهدت وخصرها أرفع مما عرفت ..

وقفت حائرا برهة . حزقت لاستدر البكاء وكان عصيا فى تلك اللحظة ، اذ أن عقلى كان قد انشغل وانفتحت فيه أعين ، لكننى من كثرة الحزن سقطت من مؤخرتى أصوات متتالية انفجر لها الضحك كالرعد ، فانتفضت أنا وهلعت صارخا محاولا الارتماء على صدرها

ولكنها جذبتنى برفق الى جوارها وهى لا تزال تضحك وتمسح لى وجهى وأنفى بيدها ثم تعود فتمسحها بذيل جلبابها ، فخيل الي أن فى الامر مؤامرة خطيرة تحاك حولى .

انصعت ليد أمى فأسلمت رأسى لفخذها وهى تواصل مسح أنفى بيدها . سرحت عينى نحو الرجل العجوز ، وجدته ينظر الى أمى باحتقار شديد ، لاويا شفتيه ، ثم تعلقت نظرته فى الهواء وبدا عليه هم شديد .

صار بدنى يقشعر وصرت أتكور ، وكانت السجادة تحت جسدى مثل شبكة من حنان دافىء تستكن بى ، الا أن منظر الرجل العجوز كان يرعبنى . أخذ رأسى يتململ رائحا غاديا كالكرة على ورك أمى ، حيث كانت قد أحنت جذعها الى الامام قليلا وأخذت تدعك فى قدم الرجل العجوز ، وتضغط وتطرقع له أصابعه . أخذت أكرههـا وأكره هذا الرجل وهذه السجادة وهذه الحجرة المزخرفة بالالوان الزاهية .

قالت أمى بينما تشير الى جبهتى العريضة :

ـ شبهك الخالق الناطق .. حتى الحسنة اللى ...

هز رأسه موافقا وقد لمعت عينيه بتحذير ما ، فأمسكت أمى عن الكلام وعلى وجهها ابتسامة مرتعشة .

بعد صمت طويل قال الرجل العجوز ــ أبى ــ :

ــ قومى نامى .

تمطعت أمى وتثاءبت ، ربتت على كتفى ، هزت رأسى ، تضايقت منها ونهضت واقفا . سحبتنى ماضية بى فى اتجاه الباب . انه لا يشبه باب جدتى « نفيسة » فهذا محندق وله يد من النحاس المشغول ، مالت فى يد أمى فانفتح .. وكانت أمى حرية بأن تتعلق بالضبة وتشد بكل قوتها اذا ما كانت تفتح باب قاعة جدتى ، الذى يصدر صريرا يشبه خوار الثور الهائج .

انغلق الباب وراءنا من تلقـــاء نفسه . فصرنا فى طرقة طويلة ضيقة مفروشة بالسجاد الخفيف ، تتدلى من سقفها لمبة كبيرة ذات قبعة عريضة تلقى على الارض أعمدة متداخلة من الظلال المتراقصة .. أخذت أرتعش .. على اليمين باب آخر يقابله باب ثالث وفى مواجهتنا باب رابع ، التفت ورائى ، رأيت مجموعة من الاشباح تشبه العرائس السوداء متجاورة ومتشابكة . مسحت العماص عن

عيني ، عصلجت فى الارض مدققا النظر فى هذه الاشباح فيما أرتعد.
قالت أمى :

ـ انت خايف كده ليه يا واد .. تعال هنا انت عايز تنزل ليه ؟ .
انت خايف من درابزين السلم ؟

ثم ضحكت ، أحسست انها ضحكة صافية خلت ـ لاول مرة ـ من الانين ، جذبتنى فدخلت الباب المواجه ، فاذا بنا فى حجرة كبيرة ملآنة بالكراسى القطيفة والكتب والسجاجيد ، على حوائطها ألواح من الزجاج فيها صور وتصاوير ، وبراويز مذهبة . أشارت أمى الى الصورة الكبيرة التى فى الواجهة وقالت فى فرح : « جدك أهه يا واد » فرحت ألتهم صورته ، وأرى فيه أمارات كثيرة من أبى . قالت أمى كأنها طفلة تلعب معى فى الحـــــارة : « تعرف يا طلعت » . كان فى وظيفة كبيرة قوى .. كان معاشر الملك » فاقشعر بدنى اذ رأيت نفسى بجلبابى الممزق وقدمى الحافية أظهر فجأة فى برواز الصورة واقترب من نفسى .

ـ بص يا طلعت . .عمك متصور مع الملك ازاى ؟

نظرت الى حيث أشارت ، فرأيت رجلين لم أعرف أيهمـــــا عمى وأيهما الملك ، لكننى انبسطت من الشرائط التى يلفها أحدهما حول كتفه وصدره وأعجبنى منظرها فقلت لابد أنه عمى . ثم أننى تسمرت فى مكانى انتفض ، ثمة امرأة كهرم صغير تجلس على شلته كبيرة عالية تنظر الى باسمة ، ذقنها مستطيل يمتد أمام وجهها فوق لغدها السمين ، بيضاء شاهقة لها عينان تشبه عينى الرجل العجوز تماما ، ولكن شيئا ما فى عينيها ذكرنى بأننى رأيت كل هذه الملامح على وجهى من قبــل حين نظـرت ذات يوم فى مرآة أمى المكسورة .

تقدمت منها دون خوف . مدت ذراعين مفتوحين . تذكرت أنها كانت تجىء فى بعض الليالى وتجلس معنا فى قاعة جدتى فتضحك مرة وتبكى مرة ، وفى كل مرة كانت تدس فى يد أمى شيئا أو تنصرف تاركة شيئا كانت تحمله عند قدومها .

ـ على حضن عمتك يا واد ..

هكذا هتفت أمى . فاندفعت أجرى نحو من سميت بعمتى ، ألقيت نفسى فى لحمها الكثير الطرى . وغبت فيه برهة طويلة . على أنها كانت تتبرأ منى وتنفض ثيابها وتضربنى بلطف على قدمى

الوسختين وتنفض السجاد من أثرهما . حينئذ خرجت أمى من الحجرة تتمايل فى مرح ، وعجبت كيف أنها تعرف طرق ومداخل هذا القصر . عادت بعد برهة ، تحمل صينية عليها كنكة القهوة والفنجان الصغير ، وضعتها على ترابيزة تلمع فيها أزرار الصدف، أمام من سميت بعمتى ، ملأت لها الفنجان ، جلست ، راحت سقيفة الضوء تروح وتجيء فكأن الجدران تهتز معها . أحسست بلحم من سميت عمتى يتململ ويطردنى فانسلخت عنـه وتربعت بجوارها مبهورا . .

رشفت من القهوة رشفة ، قالت :

ــ قرأت الفاتحة على روح المرحومة ؟

قالت أمى بحماس وجد :

ــ يا خبر يا عمة ؟ .. دانا بكيت عليها لما انقهرت ! ..

ــ مش قصدى ...

ــ دانا لسه ما قلعتش الاسود غير النهاردة .. هو الدم يبقى ميه ؟ .. دى مهما كان أخت جوزى .. يعنى عمتى !

ــ يعنى سامحتيها ؟ ..

ــ مسامحاها ..

ــ على كل حال .. الحمد لله رجعت الميه لمجاريها ..

امتدت يد أمى نحو رأسى فخلعت عنها الطاقية القديمة المزينة التى بكيت فى طلبها حتى أعطانيها رجل قيل أنه خالى ثم عادوا فقالوا أنه أحد أقارب أمى . أحسست بالعرى حال رفعت عن رأسى ، هممت بالجعير لكن شيئا ما حلوا كان يفور فى عروقى بالفرح ، وقالت أمى باسمة لما شعرت برغبتى فى البكاء : « عيب .. انت ابن راجل محترم ما تلبسش الطاقية العرة دى » . ونظرت نحو من تسمى بعمتى ، وتفتفت بلسانها وقالت بما يشبه الخجل : « كنا بنبعت له هدوم راحت فين يا ترى ؟ » . قالت أمى مشوحة : « أهو بيقطعها من شقاوته طول النهار فى الحارة » . فتفتفت من تسمى بعمتى وقالت : « ابن كامل بيه يلعب فى .. قصدى .. ابن الاكابر يلعب فى التراب ! » . ثم تنهدت فأصفر وجه أمى وخفق قلبى ، وقالت من تسمى بعمتى : « نصيب .. كل شيء نصيب » . وزمت شفتيها وخرجت عيناها كلوزتى القطن الكبيرتين كليمونتين أطلتا من شباكين وراحتا تعتصران .

تناولت أمى ذيل جلبابها الاسود ومسحت دموعها المتدفقة بغزارة، ثم تمخطت ، ووضعت خدها على يدها وتركت دموعها تسح .. منذ وعيت وأنا أضبطها فى عز الليل جالسة وحدها فى القاعة نفس هذه الجلسة ، ورك على الارض نائم والآخر منتصب والكوع مستند فوق الركبة والخد مستريح فوق كف اليد والدموع بلا نهـــاية ، وشريط اللمبة نمرة خمسة المعلقة على رفها الخشبى يتساقط الى القاع كلما رفعناه ، ومن فرط الجفاف صار طرفه أحمر قانيا بغير ضوء ، كنت أراه مضاعفا فى عينى أمى ، وكنت أغمض عينى بعد برهة وأدفن نفسى فى الظلام ، لكننى كنت أبكى اذا ما طلـع النهـــار وبلا سبب .

كنت متربعا على السجادة لحظتها أحملق فى عينى أمى ، وكنت ويا للغرابة أشعر بكثير من الراحة لا أعرف لها سببا . اذا بيد أمى تمتد وتربت على ظهرى وتقول بين دموعها بصوت أخنف :

ــ ما تعيطش يا حبيبى .. وانت لك حق تفرح وتزأطط .. عشان رجعنـــــا لأبوك .. أبوك خلاص ما عادلوش حد فى الدنيا غيرك . أصل عمتك الله يرحمها ماتت وعشان كده بنعيط .. عمتك اللى كانت مقوياه علينا ومقسية قلبه .. ماتت ربنا يرحمها ويحسن اليها .. بس اوعى تزعل منها يا طلعت .. عمتك حبتك ياخوية .. ان شاء الله .. ربنا يدبنى طولة العمر لما أشوفك كبير كده وبتروح تقرا لها الفاتحة ..

شعر رأسى كان يتحرك واقفا ، من تسمى بعمتى رمتنى بنظرة لم أفهم لها معنى لكننى خفت منها ، وتذكرت « القردة » ــ أقصد عمتى ــ أقصد المرحومة التى جئنا بسيرتها ، كانت جدتى «نفيسة» تسميها « القردة » لأنها ــ المرحومة ــ غير هذه الجالسة معنا وان كانت تشبهها ، فهى على العكس رفيعة كالزعزوع ، وحمراء الوجه والشعر كمؤخرة القرد تماما ، ولسانها لا يكف عن الشتائم ، نسمعها فى دار جدتى « نفيسة » وفى الحارة ، يتلقاها كل سائر فى حاله وكل سارح ببهيمته وكل طفل يلعب تحت شباك قصرها وكل نسمة هواء لا تعجبها ، تقول جدتى « نفيسة » ان هذه « القردة » ــ أقصد المرحومة ــ هى الوحيدة من بين اخوتها التى يتصلب فيهـــا العرق التركى اذ هى بنت من يسمى بناظر أفندينا ، تظل طول النهـــار والليل ترسل صوتها المشابه لصوت الرجال حاشرة باسم أفندينا

فى كل كلام ، ومن الطابق الثالث ـ حيث تنام هى وتستقبل ضيوفها كان اسم أفندينا يتخطى السطوح وأقزام الجدران ويصل الينا فى قاعة جدتى « نفيسة » فيما تكون جدتى « نفيسة » أقامت صلاة الفجر وشاركت مؤذن المسجد فى غناء الاستفاثة بكل دقة ، نفس كلمات المؤذن وعباراته بل ونغماته بالحرف الواحد ولكنها ويا للعجب ترن على صوت جدتى « نفيسة » بأصداء مختلفة ومعان أكاد ألمسها ملمس اليد ، وكان ـ لا صوت المؤذن ـ هو الذى يبارى صوت « القردة » عمتى المرحومة ، وكنا نستيقظ جميعا وتستيقظ الديكة وتستيقظ كذلك أعواد الحطب وقش الارز فوق السطوح ، حينئذ ينفتح الباب والناروزة وينتشر الصباح فى القاعة وتسحب جدتى « نفيسة » منقد النار فتشعل جمرات القوالح وتضع فوقها براض الشاى ، عادة ـ فيما تكرر دائما ـ منذ تزوجت المرحوم مجدى ـ ام أمى ـ شيخ خفراء البلد ..

لم تكن عمتي « القردة » فى حاجة الى المجىء الينا فى قاعة جدتى « نفيسة » لكى تشتمنا وتلعن أبانا وأباء الذين خلفونا ، كان باستطاعتها أن تفتح شباك غرفتها فى الطابق الثالث وترسل الينا شتائمها على رءوس الاشهاد ، ويجىء أهل الحارة كلهم ويشربون مع جدتى « نفيسة » ويبدون اعجابهم بعقلها وعدم اعارة القردة التفاتا، وكانت تشفط الشاى كالرجال ويحمر خداها وتقول كل واحد يعمل بأصله .. أصلك فعلك صحيح » .. وكنت قد عجزت عن معرفة السبب الذى من أجله تضطهدنا « القردة » وتفرج علينا خلق الله ليل نهار ..

تأوهت من تسمى بعمتى وأنهت تأوهها بصوت يشبه صوت عواء الكلب الملول ، ثم مدت ساقيها فطرقعت أصوات كثيرة ، فاعتدلت أمى فى جلستها وتلقفت الساقين الفليظتين فأراحتهما فى حجرها وصارت تدعكهما بكفيها الصغيرتين الجميلتين ، وتلوى الاصابع بقوة ومن تسمى بعمتى تعوى فى لذة غريبة . وكان قلبى قد انشرح فجأة ولعلنى اكتشفت لحظتها اننى أنحدر من أب له وجود حقيقى ، وها هو ذا ينام أو يجلس فى غرفة مجاورة من هذا القصر ، وها هى ذى عمتى تجلس بجوارى وها أنا ذا أجلس على سجاد يملكه أبى فى قصر يملكه أبى ، وأستطيع أن أطل من شباك على الحارة ، وغدا سوف أفعل ، سوف أصعد الى كلّ الشبابيك فى كل الطوابق ، وابص من وراء زجاجها ومن بين حديدها ، ومثل

« القردة » سوف اشتم كل الاولاد الذين ضربونى وعيرونى بأشياء غامضة ، وغدا سوف أخلع هذا الجلباب وألبس آخر جديد . وسوف البس الحذاء ذى الازرار الملونة ، وأذهب الى المدرسة وأحمل الحقيبة ، وأمشى فى شوارع البلدة ممسكا بيد أبى سعادة البيك المحترم مثلى .

تثاءبت من تسمى بعمتى .. قالت :

ـ شوفى يابنتى .. كان لازم نلم لحمنا ..

قالت أمى :

ـ الحمد لله .. أصله عارف ان أنا وليه وغلبانه .

قالت من تسمى بعمتى :

ـ بس أنا .. متآخذنيش .. شـــايله أمانة .. غصب عنى يا بنتى !

أمى تبلع ريقها :

ـ خير يا عمة ؟

ـ المرحومة .. قبل ماتموت بدقائق .. وصتنى وصية !

شفة أمى تشققت :

ـ ايه يا ترى ؟

شددت ساقيها من تسمى بعمتى :

ـ عشان تقابل ربنا مستريحة .. وافقت على اننا نلم لحمنا .. انى أروح اجيبك يعنى و .. وتعيشى معانا انتى وابنك .

بللت أمى شفتها بلسانها :

ـ كتر خيرها .. الهى ربنا ما يوريهاش ضيقة أبدا .

امتطت الجفون محاولة اخفاء العينين البارزتين :

ـ أختى طول عمرها مخها ناشف .. أبوها كان يحبها عشان كده .. طول عمرها تخاف على أملاكه ، على أمواله ، وكانت يا حبة عين أختها تقول ان اللى غابت عمرها تخاف منه حصل ! ..

ـ اللهم اجعله خير .. هو ايه ؟

ـ ما انتى عارفة ..

ـ أنشك فى لسانى ان كنت أعرف !

ـ كانت تخاف ان أخوها .. وبسلامته طول عمره عينه فارغة .. يتجوز واحدة فلاحة .. وتخلف له ولد خايب عبيط يشارك عيالها فى الورث ..

أمى تبحث عن ريقها :
ـ هو .. يا عمة .. لا سمح .. الله يعنى .. متآخذنيش .. ابنه حيطلع لمين ؟
ـ الام !!! ..
ـ هو أنا مش بنت ناس برضه ؟ .. وأبويا شيخ غفر البلد ؟
ـ على كل حال .. انتى بنت ناس طيبين .. وعشان كده .. وعشان اللحم ده (أشارت الى) وعشان أبوه يعرف يربيه.. حنمسك العصايا من وسطها .. ومش احنا بس اللى بنمسك العصايا من وسطها .. الامم بحالها مسكت العصايا من وسطها .. الحرب خلصت وخلصت عشان الشرط ده لوحده : تقسم البلد نصين .. وحياتك وقسموها نصين ، نص يتبع الشرق ونص يتبع الغرب ..
ـ أيوه بيقولوا شوفى ازاى حكمتك يارب !
ـ تعالى بقى نمسك العصايا من وسطها .. ونقسم البلد نصين ..
عينا أمى الجميلتان كادتا تبرزان من فرط الارتياع :
ـ يعنى ايه متآخذنيش ؟
تفتفت من تسمى بعمتى وعوجت رأسها ناحية الباب :
ـ الراجل العجوز أبو عين زايغة لما قل عقله متآخذنيش واتجوزك .. أقصد وانتى قد عيال عياله .. ما كانش فى وعيه ساعتها .. والمرحومة أثبتت كده عند الدكتور !
انطفأ البريق تماما فى عينى أمى .. خفضت جبهتها فى الارض كأنها ستقع من الطابق الاخير . ثم انها رفعت رأسها وتنهدت . وواصلت من تسمى بعمتى :
ـ و .. المأذون كان جاهز على الطلاق .. راح وجه تلتميت مرة !
ـ كل شىء نصيب .
ـ أنا ما وافقتش .. بس كان لى شرط .. وجبتك دلوقت عشان اقول لك عليه .. ان قبلتيه يا بنت الحلال .. أهلا وسهلا عيشى فى البيت وربى ابنك .. اذا ما وافقتيش .. يبقى المأذون جاهز .
فى عينى أمى فحمتان محترقتان :
ـ أنا موافقة على كل حاجة .. ما دام حاعيش مع ابنى وأبوه .. حتى لو أكون خدامة !
العينان اللوزيتان تدخلان وتخرجان :

ـ يا دار ما دخلك شر .. اتفقنا .. بس يكون فى علمك .. وهزت أصبعها وانتبهت أمى :

ـ الراجل العجوز اللى اتجوزك .. مالوش أى حاجة هنا .. البيت ده بتاع ناظر أفندينا .. والعفش عفشه .. ومكتوب باسمى أنا والمرحومة بس .

ـ وماله .. ان ماشالتوش الارض يشيله دماغى .

ـ والارض روخره .. مالوش فيها ولا شبر .. المرحوم كتبها باسمنا قبل ما يموت .. أصله كان عارف ان ابنه طول عمره عينه زايغة ، وكان يخاف منه هو راخر خوف المجنون ، وكان دايما يعلم ان ابنه ده هو السبب فى تمريغ اسم العيلة فى التراب .. واللى حسبه لاقاه .. متآخذنيش .. أصله عمل حاجات قبل كده وربنا ستر وصلحناها وراه .. وما كانش المرحوم يتصور ان ابنه حيكيده وينتقم منه ويروح متجوز اللى على مزاجه فى السر من غير ما يقول لنا ..

صدر أمى يعلو ويهبط . ذابت ملامحها . صارت صفحة وجهها مثل جلد الطبلة . قالت : لا أدرى من أى صوت .

ـ ع العموم معاه ربنا ومعانا .

تفتفت من تسمى بعمتى براحة :

ـ وطول ما أنا على وش الدنيا أديكم بتاكلوا وتشربوا وتباتوا وتتكسوا أربعة وعشرين قيراط .

ـ الهى ما نتحرمش منك .. الهى يقعد لك فى أولادك .

دبت يدها فى صدرها **الذى يملأ قفة :**

ـ محدش ضامن الموت من الحياة .. واللى أوله شرط .. آخره نور وأخرجت ورقة مطوية فردتها فسقط منها قطعة فى حجم عقلة الاصبع من قلم كوبيا :

ـ متآخذنيش يابنتى .. احنا اتفقنا انى أبلغ الامانة مش كده ؟

ـ طبعا الامانة تكسر رقبة اللى يخونها ..

ونظرت الى الورقة فى توجس :

ـ حلو ..

قالت من تسمى بعمتى ، ثم هزت الورقة :

ـ خدى بقى .. نفذى وصية المرحومة .. ما هى دى الوصية .. وهى الامانة ؟

ـ يعنى أعمل ايه ؟

ـ اختمى بصباعك على الورقة دى .. فين صباعك .

فمدته فى الحال . ولكنها حين أمسكت به من تسمى بعمتى وبللته بريقها وراحت تمرر سن القلم الكوبيا فوقه ، قالت :

ـ عشان ايه ده يا عمة ؟

ـ ده يا حبيبتى عشان مفيش واحد فلحوس من قرايبك يطلعها فى دماغك تشتكينا وتقولى عايزة كذا وكذا ..

وكان جسدها كله على ضخامته يهتز وهى تلغمط أصبع أمى بالكوبيا ، ثم تبلل أسفل الورقة وتمسك بأصبع أمى وتلصقه بالورقة فوق البلل وتظل تضغط عليه وتبططه ، فلما أطلقته نظرت فيه أمى ثم بللته ومسحته فى ذيل جلبابها وقالت :

ـ أنا مستعدية أعمل كل حاجة عشان دهه (وأشارت الى) .. يتربى فى ضل أبوه .

ـ الحمد لله .. قومى بقى اعملى اللى عايزة تعمليه .. شوفيه ليكون بسلامته عايزك .

عادت الدماء الى وجه أمى وهى تنهض كأنما ترمى عن ظهرها حملا ثقيلا ، فكان ذلك ايذانا لى بأن أستبيح البيت وأجرى بكل فرح ، لكننى ما كدت أفعل حتى جمدتنى أمى بنظرة ، ثم قرصتنى ، وقالت لى بصوت فيه مرح :

ـ مش كده حتنام فى حضن عمتك ؟ ..

ففوجئت بذلك وكدت أبكى . لكنها همست فى أذنى بفرح :

ـ الصبح تبقى تجرى زى ما انت عايز وتلعب زى ما انت عايز .. وتأخذ قرش تضيعه .

وتهيأت للانصراف بدونى . فقالت من تسمى بعمتى :

ـ خذيه يمسى على أبوه الاول قبل ما ينام .. ويقول له تصبح على خير .. عشان يبقى يتعود على كده .

رقص الفرح لاول مرة على صوت أمى :

ـ ياختى انشا الله يارب .. تعالى يا واد ..

وسحبتنى فمضيت اتعثر وأحمل هم بربورى المنساب فأحاول شده الى الوراء بصوت تفتاظ منه أمى دائما وتقول : « ماتشنشش » . ولقد قرصتنى فيما ننطلق فى البهو الكبير الملىء بالسجاد والاثاث

لتحذرنى من هذه « الشنة » . فلما صرنا أمام ستارة بنية تنساب الى الارض أمرتنى بالتوقف ثم أزاحت الستارة وغابت خلفها ففعلت مثلها وشممت فى الســـتارة رائحة حلوة كرائحة الهدوم الجديدة ثم انها طرقت على الباب طرقة خفيفة وفتحته ، واطلقت سراحى مشيرة لى نحو السرير الاصفر اللامع وأصبعها أمام شفتيها حذرتنى من الضجيج ..

كانت الناموسية مفتوحة مثل فتحة الخيمة ، وكان أبى مضجعا على السرير مسندا رأسه على مخدة اضافية واقفة ، ووجهه العجوز منبسط كوجه الطفل الصغير . توقفت مسمرا . همست أمى فى غيظ : « قول له تصبح على خير .. يلا » .

جمعت شجاعتى كلها ونطقتها دفعة واحدة :

ـ تصبح على خير يا آبا ..

ولكن أمى انزعجت انزعاجا مبتهجا ، وغمزت بعينيها هامسة : « قول له يا بابا ماتبقاش حمار » . فقلت بسرعة وصوتى يرتعش كأننى أقرأ الفاتحة :

ـ تصبح على خير يا بابا ..

فغمزت أمى بشفتيها وهمست : « بوسه » ..

فجمعت شـــجاعتى مرة اخرى وتسلقت السرير وهجمت عليه وقبلته فى جبينه . وكان باردا . ثم ان رأسه اختل فانحـــدر فتهاوى على صدره ، فارتعدت وتقدمت أمى لتعدله ، ولكنه تهاوى مرة ثانية ، فاصفر وجهها ، وتلقفت رأسه على ذراعها ورسغه بيدها الاخرى وظلت مسمرة فى مكانها برهة طويلة كالتمثال ، ثم أطلقت صرخة واحدة كفت بعدها عن الكلام . ومن بعيد جدا جاء صوت من تسمى بعمتى : « فيه ايه يا بنت حصل ايه » . وكررت السؤال مرات عديدة ، فلم نستطع ـ أمى وأنا ـ أن ننطق بما قد حدث !

★ ٢٥ مارس سنة ١٩٨٠

الحنـــين



الحنين

لو كان للمبنى قبة لقلت أن تحتهـــا رفات ولى من أولياء الله الصالحين الذين تحفل بهم أرض الكنانة ، ولكن لا شيء يوحى بشيء من هذا على الاطلاق ، فالمبنى مجرد صندوق طويل من الاسمنت واقف يشبه واحدا من تلك الاسبلة المنتشرة فى الريف غير أنه مغلق بباب حديدى ازرق ، وملتصق بعمارة هائلة من عشر طوابق على الطراز الفرنسى المهيب .

لم يكن ليلفت نظرى هذا المبنى باعتباره كوخا منحوتا وبارزا من الضلع الايسر للعمارة وأنت داخل من بوابتها العريضة ذات الارض الرخامية اللامعة وصناديق البريد المنتشرة على الجانبين . كمـــا وانني لم اكن من ساكنى العمارة ولا حتى من أهل حيها ، انمـا أنا شاب قدمت الى العاصمة حديثا سعيا وراء حلم ساحر غامض خيل لى أن ضوء العاصمة سيكشف عن أسراره ويحققه ، وقد اخترت من العاصمة هذا المكان بعينه ليكون - تقريبا - محل اقامتى مع أنه لم يكن هناك محلا بذاته يمكن الزعم بأنه محلى المختار ، فان لم أكن أبيت فى احـدى لوكاندات الحى الرخيصـــة فالمقهى مفتوحة حتى الصباح وواحد شاى يشفع لمن أقام جسور الود ، وانعدام ثمنه عند المصريين اكثر شفاعة ، ولقد تراني عند الخباز لحظة وأخرى أحتسى الشاى مع المكوجى ، ويمكن للحلاق أن يدلك بأننى منذ لحظـــات كنت هنا وبعد لحظات قد تجدنى مدعوا فى فرح سالم الجرسون ، واذا حلفت لى انك ذهبت الى الفرح فلم تجدنى فسوف أقول لك : كم كانت الساعة لحظتها ؟ فتقول كذا ، فأقول لك فيما ألوى شفتى آسفا واعتذارا : آه .. كنت لحظتها أعطى درسا فى الرياضة لابن ساعى البريد الذى يسكن فى نفس بيت الفرح .

لكثرة الاسباب لم أعد أعرف لاى منها يرجع الفضل فى ارتباطى بهذا الحى دون بقية أحياء العاصمة على الرغم من أنه ليس موطنا لاحد أقاربى أو حتى بلدياتى ، ولكن ربما كان السبب هو أننى - شأن كل المصريين على وجه أخص - عندى ولع شديد بالمكان ، وربما لان هذا الحى هو موطن أهل مهنتى وموطن مواقفهم العـــذبة

ومعاناتهم ومآسيهم الشخصية كمـــا أنه منطلق أحلامهم العريضة المشتعلة . الا أنه من المؤكد أننى أحببت أهل الحى مثلما أحبونى ، بل أضعاف ما أحبونى ، ويكفى أنهم لم يتطفلوا على همومى الخاصة وقدموا الى الخير والمحبة دون محاولة لمعرفة من أنا أو ما أكون .

وأزعم أننى قد فهمت المدينة من خلالهم كما أزعم أننى فهمتهم على حقيقتهم وأستطيع تفسير الكثير من تصرفاتهم وسلوكهم المتسم دائما بالغموض الساحر الكثيف . الا أن الكثير الكثير مما يفعلون ويسلكون لا أستطيع أن أقدم له تفسيرا على الاطلاق ، من ذلك مثلا هذا المبنى الصغير الملتصق بصدر هذه العمارة الهائلة ، وما كان يدور حوله فى ذلك الزمان .

فى البداية ضحكت حتى استلقيت ـ بالفعل ـ على قفاى . فقد كنت مارا من امام هذه العمارات ذات يوم بعيد فلفت نظرى أن ثمة من يقف أمام هذا المبنى الصغير خافض الرأس ، عاقد الجبين فى شعور بالاهمية ، فيما أخذ يتمتم بكلام مبهم لم أفهمه . الصورة التى اقتحمت دماغى لحظتها صورة رجل ريفى مثلى يقرأ الفـــاتحة لتمثال محمد على أو لمبنى الترماى مثلا ، فهذا بالقطع أقل من ريفى عبيط ، على أننى حين اشتريت « ساندوتش » الفول وعدت وجدت رجلا آخر يقف نفس الوقفة بنفس الخشوع ويلعب شفتيـــه بنفس التمتمة . حينئذ كففت عن الضـــحك ونظرت فى الامر بشىء من الاسف والتعالى . الا أننى فى اليوم التالى ـ ولا أدرى كيف أصبحت أفضل المرور من هذا الشارع الجانبى ـ رأيت سيدة ، ليست فقط من النوع الافرنجى بل يبدو عليها الاحترام والمعرفة ـ بدليل أن فى يدها مجلات وجرائد وكتب ، وكانت تقف نفس الوقفة بنفس الخشوع وتلعب شفتيها بنفس التمتمة ، وتضيف الى ذلك انخراطهـــا فى البكاء الشديد بدون صوت ، مجرد سيل من الدمع الغزير لا ينقطع. وقفت أتأملها لبرهة طويلة وأخيرا انطلقت أبتسم فيما لا أعرف ان كان أسفا أم اشفاقا .

وجدت أن الاهتمام بمثل هذا الامر يصيب عقلى بالاختلال خاصة وأننى كريفى أخشى أن يكون فى سلوك المدينة شيئا مفيدا وهاما يضيع منى لتراخى فى تقليدهم . ورغم أننى فى الظاهر لم أعد أهتم بأمر هذه الظـــاهرة الا أننى كثيرا ما ضبطت نفسى متلبسا بالاهتمام الشديد ، حتى أننى فى اللحظـــات القليلة التى كانت

تجمعنى ببعض ذوى الشأن من أهل مهنتى ــ تلك اللحظـــات التى كنت أرجوها دائما أدبر لحدوثها ــ كنت أرانى مهموما بسؤالهم ، فى غير صراحة ، عن أمر هذا المبنى وهؤلاء الذين يطوفون من حوله يتمتمون ، فكان الواحد منهم ينظر الى مبتسما ويقول شيئا منغما لا يقل غموضا عن تمتمة الناس حول ذلك المبنى ، وكان يبدو على الواحد منهم بعض الحرج اذا ما استشف اننى سألح فى السؤال ، الامر الذى منعنى من طرق هذا الباب ثانية مع أهل مهنتى أو أهل الحى الذين يعرفوننى ..

على أن الظاهرة لم تكن مجرد ظاهرة أبدا ، واذا كانت تبدو لى بأنها حديثة فما ذلك الا لكون عرفتها متأخرا بينما هى ــ كما هو واضح أيضا ــ عريقة فى القدم ، ففى كل يوم أرى صنوفا من البشر يحلو لى مراقبتهم من بعيد لاضبط ما ســـيطرأ على حالهم عند محاذاتهم لهذا المبنى ، فهذا شاب يلبس عفريتة ويمشى مسرعا جدا كالمطارد ، ثم يهدىء من خطوه شيئا فشيئا ليضع يده أخيرا على ذلك المبنى ويتمتم ثم يمضى ، وهذا كهل يجر خلفه هموم المعاش واضح من خطوه أنه يقصد ذلك المبنى مباشرة وفى محياه ابتهاج شديد . ذلك كله كوم وما فاجأتنى به الايام كوم آخر ، ذلك أننى فوجئت بناس لعلهم من أهل قريتى يلبسون العباءات والجـلابيب ويركبون الركائب يقبلون فى شغف فيترجلون قبل المبنى بمسافة حيث يظهر فى الحال ابن حلال يتكفل بامساك ركائبهم ريثما ينتهون من وقفتهم نفس الوقفة بنفس الخشوع ويلعبون شفاههم بنفس التمتمة !

لم تعد الظاهرة فى حد ذاتها تحظى باهتمامى ، انما الذى شغلنى حقا وملك على تفكيرى هو : ما الذى يتمتمون به اتراهم يقـــرأون الفاتحة ؟ أتراهم يقرأون أورادا ؟ أو أحزابا ؟ أو أى صيغة من الصيغ التى يمكن أن يتناقلها كل هؤلاء كأنها العهد يوفون به ؟ . عبثا ضاعت كل محاولاتى ، فلقد اندسست بين بعضهم ورحت أفعل مثلهم : أقف خاشعا وألعب شفتى بلا شىء وأنا فى الواقع أصيخ السمع فلا تبلغنى الاذن شيئا أى شىء ، فلا أحد يرفع صوته أبدا ، ولا أحد ينظر الى من بجانبه ، ولا أحد يطيل حبل الحديث مع أى مقتحم .

اذا كانت العادة تخلق واقعا فاننى اقول أن العادة هى الواقع ، او هكذا صارت بالنسبة لى انا على الاقل .. فالذى حدث أننى بين عشية وضحايا اصبحت عضوا رئيسيا بين زوار ذلك المبنى ،

أقف نفس الوقفة بنفس الخشوع والعب شفتى بنفس التمتمة التى حفظت شفتاى حركتها وان لم يحفظ لها العقل منطوقا ولو مغلوطا . وصرت أرسم على وجهى فوهات المدافع المضادة لاى مقتحم أو لاى نظرة يشتم منها رائحة التريقة على ما أفعل ـ فمن ورائى جماهير عريضة تفعل نفس ما أفعله . حتى أولئك الشبان المتساوون معى فى السن والذين هم أشبال أهل مهنتى كنت أرى العديد منهم ينخرطون فى نفس الطقوس بدرجات متفاوتة من الحرص والجدية ، ورغم أننا كنا نشيع كافة الامور نقاشا نصدع به رءوس الكون ، الا أننا فى هذا الامر بالذات لم نكن نتناقش أبدا بل كنا حين نلتقى فجأة فى حفل التمتمة لا نتوجه بعضنا البعض بالتحية بل ننصرف كأن أحدا لم يقابل الآخر فى هذه اللحظة .

الاكثر مدعاة للدهشة والغرابة اننى منـذ ان واظبت على تلك الزيارات انفتحت أمامى سبل للرزق لم تكن متوقعة على الاطلاق ، والعجيب العجيب أنها من غير طريق مهنتى أو ما تمنيت أن تصبح مهنتى . هيأت لى الظروف رجالا يحسون أنهم رأونى من قبل ، أو أحس أننى رأيتهم من قبل ، لهذا يكلفوننى ببعض المهام الثانوية أقضيها بكل شهامة على أساس أنها ليست من مهنتى ومن ثم فهى خدمة ، فاذا بى أكافأ عليها بيد مبسوطة . حتى اذا ما تقدمت بى السنون وتهيأت للزواج اكتشفت ان كل مدخراتى وما سأنفقه فى الزواج وفتح البيت جاء كله من هذه المهام الثانوية ، واذا بهذه المهام الثانوية هى مهنتى الحقيقية التى قامت عليها حياتى ، فلمـا صرت مسئولا عن بيت وأولاد كنت قد توصلت الى ما يشبه التقنين لهذه المهنة وافتتحت لها ولى مكتبا صار به موظفون يعملون تحت أمرتى وينطلقون هنا وهناك لتخليص أشياء وأعمال وأقوال واوراق من أماكن متعددة ...

استغرقتنى بسمة الحياة وانسبت فى ركابها الى احيــاء أخرى تضاءل أمام اسمها وحده حى مهنتى بكل تاريخه بل وكل تاريخ أهل المهنة انفسهم . صرت ـ بكل بساطة ـ واحدا من ذوى الدخـول الكبيرة . والمال كالنهر اذا فاض يمكن أن يعزلك أو يطفو عليك فتكون من المغرقين ، هذه حقيقة أعلمها ولكن من حسن الحظ أن مهنتى الجديدة ـ تلك التى لم أصبحها ـ كانت لا تزال تسرى فى دروب الذاكرة تحت الركام كجمرة من جمرات الضمير انطفأ عنها الوهج

وغطاها التراب ، فكانت تستعيد بصيصها وتسخن وتتوهج كلما نفخت فيها روح صديق عزيز قديم أو ذكرى فعل خير أو عطر لحظة حميمة ، ولكن يبدو أن النفس خداعة حقا ، فالنفس التى يجيئها الكسب من غير ما أحبت وما تهيأت وتأهبت ، تعمد الى تحصين نفسها ضد القديم وان أحبته ، وان كان بعض طفولتها وصباها وشبابها .. والا فلماذا رغم حبى واشتياقى لم أحاول زيارة الحى القديم رغم أنه على قيد خطوات بسيارتى !؟ مع ان السيارة فتحت لى ولاولادى طرقا جديدة وخلقت زيارات لأحياء كثيرة ، الا هذا الحى لم تطأه قدمى منذ أن غادرته آخر مرة قبل سنوات طويلة بل طويلة جدا !! ..

يكون الانسان عرضة لهبوب الرياح حقا اذا ما بقيت فى النفس جمرة ملتهبة ، فلقد تزيل الرياح المتواصلة ركام التراب فتلتحم بالجذوة فيشتعل الانسان من جديد ولكن بمشاعر سابقة وأحلام غابرة . وهذا ما قد حدث معى ، فبعد أن تحققت كل مطالبى الجسدية والمادية ، وبعد أن تهيأ لى ولاولادى من بعدى مستقبل ملىء بالعيش الرغد فوجئت بأننى لم افعل شيئا واحدا مما أحببت، لم أصعد قمة واحدة مما حلمت ، لم أبلغ ذروة واحدة مما أملت . ثم بدأ يعاودنى حنين عظيم الى الحى القديم ، وانبثق ذلك المبنى فى خيالى كشعاع من الضوء المبهر ، وأحسست برعدة اذ وجدت شفتى تتمتمان بشىء مضغم لا افهمه ، لكن هذا الشىء المضغم سرعان ما صار معنى شديد الوضوح ، فأيا كان الامل فى ذلك المبنى فهو ينطوى على سر خطير دون شك ، بدليل أننى ارتبطت به دون أن أعلم علم اليقين هل توجد تحته رفات انسان أم رفات ذكرى ، خاصة وانه ليس يحمل أيا من تلك العلامات الطقسية أو المعمارية التى توحى بأنه ولى بالمعنى المفهوم .. أيا ما كان الامر فانه يمثل نقطة ثابتة التقت عندها جماهير عريضة ، صحيح أنها تردد تعاويذ مجهولة ولكنها .. ها هنا .. تلتقى !

كل هذا قد يمكن تفسيره لكننى لا أستطيع تفسير ذلك الحنين الدافىء الذى انتابنى فجأة نحو ذلك المبنى فى ذلك الحى ، ولست أعرف ان كان الحنين مدفوعا بحب المبنى نفسه حتى وان جهل العقل محتواه على التحديد ، أم بحب الحى نفسه أم بحب أهله أم بحب هوايتى الاصلية التى اقتادتنى اليه من الاساس ؟! ..

المهم اننى قررت – وقد صرت فى نعمة غامرة – أن اذهب لزيارة هذا المبنى على وجه الخصوص ، فواجب رد الجميل يقتضينى – على الاقل – أن أزوره وأشكره ، ألم تكن النعمة التى أنا فيها من خير رحابه ومن فيض أهله وزواره ؟ . ربمـــا كان هذا محض خيال وغيبيات لا يقبلها العقل ، ولكن الانسان يظل يفعلها طالما أن ثمـة رباط وثيق بينها وبين ما قد حدث فى حياتنا بشكل شخصى .

فوجئت بأننى أدور بعربتى فى منطقة شبه مجهولة تماما بالنسبة لى حتى ايقنت أننى فى بلدة أخرى . سألت هل هـذا هو الحى الفلانى ؟ قالوا نعم . فركنت سيارتى ونزلت أستقرىء الشوارع والمبانى أبحث فى صفحاتها عن بصمتى الضئيلة . فما وجدت شيئا واحدا مما عرفته من شوارع أو مبانى أو طرقات ، فلقد تغير كل شيء ،وحفلت المنطقة بالعمائر الجديدة والخرابات الواسعة والاكشاك المتفرنجة ، تعبت من التجوال والدهشة ، وحصرنى البول فانحزت الى حارة أوصلتنى الى سور طويل حول خرابة أمامها جدار صغير من الاسمنت مثل ما يقام أمام العمارات زمن الحروب ، ولم يكن ثمة أحد فداريت نفسى فى ظل الجـــدار الصغير وأرسلت حاجتى اليه وتأوهت بلذة حيوانية ومضيت الى شارع شبه عمومى . انجذبت الى مقهى نظيف جدا مفروش بالنشـــارة يجلس عليه رهط من مدخنى الشيشة منكسى الرءوس على المباسم كالمقهورين . جلست وفعلت مثلهم . برهة صغيرة وتعرفت فى شخصية الجرسون النظيف على الولد الذى كنت أعطيه الدرس فى الزمن الغابر ، واحتفى بى احتفاءا لا نظير له ، ثم اتضح أنه صاحب المقهى ، أنه فى سوق المال عظمة كبيرة تزرى بأمثالى .

سألته عن كثير من الاشخاص والاماكن تمهيدا لسؤاله عن ذلك المبنى وتلك العمارة . وكان يجيبنى بكل دقة . حتى اذا ما هممت بنطق السؤال تبسم الجرسون واشـــار لى بيد بضة مليئة بخواتم الذهب ، صاح فى ابتهاج حقيقى : « و .. و ... ه .. والله زمان .. تعال أوريه لك » .. ومر بى فدخلنا الحارة واقتربنا من الخرابة وتوقف فاقشعر بدنى .. وكان ثمة من يبول على الجدار الصغير فى نفس البقعة التى سبق أن تبولت فيهـــا . وكانت رائحة الصنان قوية .

قال الجرسون بكثير من الاسف :

ــ آدى اللى انت بتدور عليه .. العمـــارة كان عليها قضـــايا وحجوزات وانهدت وابتاعت وطلعت لهـــا قضايا جديدة ومن يومها وهى كده !! ..

كادت الدموع تطفر من عينى وكاد الغيظ بفجر صدى .. ونظرت بحقد شديد الى ذلك الذى كان يبول ، وزجرته بعنف شديد :

ــ عيب يا أفندى يا قليل الادب .. ما بتعرفش عملتها على مين ؟!

فنظر الى ببلادة وسخرية :

ــ حاكون عملتها على مين يعنى .. عليك طبعا زى ما هو يا مين .

فاندفعت نحوه منتفضا ، وبدون وعى شيعت له قلما على صدغه فشيع لى خمس بونيات حاقدات وركبتين وروسية كل ذلك فى لمح البصر ، ثم اندفع يجرى وأنا أصيح خلفه : « حلق .. حوش .. أمسك » ولكنه اختفى قبل اختفاء صوتى . وكان الجرسون لا يزال مذهولا مما حدث .. فصار يطيب جروحى ويسندنى وأنا أدارى الخجل والعار قائلا :

ــ لازم أبلغ البوليس .. لازم !

فقال الجرسون ساخرا :

ــ وكان لازمة ده كله ايه ؟ .. ليه انفعلت كده مرة واحدة ؟

فأخذت أبرطم :

ــ قليل الادب .. يتبول على مكان محترم ؟ مش عيب ؟

وأحسست ان البكاء سيغلبنى فاستأذنت من الجرسون وانصرفت. ركبت سيارتى وأنا أشعر بمهانة لم أشعر بمثلها فى حياتى . ولكن حين اندفعت بى السيارة فى الخـــلاء وجدتنى أبتسم ساخرا من سخفى وسخف كل شىء .

---

* فبراير سنة ١٩٧٩

يوم خميس لعين



يوم خميس لعين

فى كل يوم يبدأ مدرس الفصل بأن « يأخذ الغياب » عن سطور القائمة التى أصبح يحفظها جيدا أو يستطيع ترديدها واحدا وراء الآخر دون أن ينظر فيها ومع ذلك ينظر فيها . ينادى كل واحد منا « فلان الفلانى » ثم ينظر برهة تكفى لان يرد فلان قائلا : « أفندى »، فان طالت الوقفة رفع حاجبيه قليلا وبعث نظرة تخترق الصفوف لتستقر على درج فلان الغائب ليؤشر أمام اسمه بعلامة الغياب ..

كلنا فصل مشهور بالغياب لاسباب غريبة ، ربما لانه ضم عتاة العيال من الحفاة الخشنين الفلاية والاذكياء ذكاء يغطى فيهم كل عرى جسدى . وربما لاننا جميعا كنا « فاقدين » أى تجمعنا أسباب متعددة للغياب وللضياع ، ولقد يغيب الواحد منـــا لان جلبابه لم ينشف بعد ، أو لانه ذهب يوصل أباه الى محطة القطار بالركوبه ، أو ليشارك فى عمل يقتات منه هو وأهله وكانت الغيبة تنتهى بمجرد أن يقابل أحد الحاضرين أحد الغائبين قائلا : « اتاخدت غياب » ، فيهز الغائب للذى حضر رأسه فى غير مبالاة .

الا الغياب فى يوم الخميس ، وفى يوم الخميس بالذات ..

ففصلنا الذى جمع كل الاشقياء وحقق نتائج تفخر بها المدرسة ويخجل منها الاعيان والتجار وأبناؤهم الذين كانوا — ولا أحد يدرى لماذا — يتوقعون لنا مستقبلا غير باسم فى المدارس ، وكأنما المدارس خلقت لهم وحدهم هم وآباؤهم . فصلنا هذا جمع بين ابن العمدة الذى يعيش فى بيت ذى فراندة وشرفة ، وبين « عبد الفتـــاح » ابن الفقى « خميس الجميعى » .

ولم تكن الحكاية من الاصل لتستوقف انتباهنا أو تجعلنا نقيم لها وزنا ، بل أن تصبح شغلنا الشاغل ومكمن سقوط الكبرياء . فى البداية نادى المدرس فى صيحة آمرة : «عبد الفتاح خميس الجميعى» فلم يرد أحد ، وكان من الممكن أن يكتفى بالتأشير أمام اسمه بالغياب ويستمر فى مناداة غيره ، لولا أنه بحركة غير معهودة ، اذ برم أصابعه حول رأسه عدة مرات وملامح وجهه تتراقص تراقصات جهنمية فيما يقول : «الولد عبد الفتاح ده ايه حكايته .. هو دايما يغيب يوم

الخميس ليه ؟ .. أنا ملاحظ الحكاية دى .. أنا بدأت أشك فى الحكاية دى .. كل يوم خميس فى أول حصة آخذ الغياب يطلع هو بالذات اللى غايب ! » .

حركة غير طبيعية صدرت عن الدرج الملاصق لدرج عبد الفتاح ، جعلت المدرس بعد ما أسدل حاجبيه على الورقة يعود فيستفهم ناظرا نحو الولدين « سبعاوى » و « قرموط » وكانا لتوهما قد رد كل منهما على زغده الآخر بقرصة وبسمة شقية بين شفاهما ، سرعان ما تنتقل عدواها الى شفاه كثيرين من الصفوف المتاخمة مما كشف ان الكثيرين يفهمون طبيعة الموقف بل وها هم ينفجرون ضاحكين فكأن فى الامر نكتة غامضة تستدعى هذه الورطة . قال المدرس : « فيه ايه » . قال ولد من الصفوف المتاخمة كز عليه الضحك فاعتذر عن ضحكه مشيرا الى الولدين « سبعاوى » و « قرموط » فيما يردد : « أصل يا أفندى .. الحكاية « سبعاوى » و « قرموط » جيران عبد الفتاح الحيط فى الحيط » ثم أخذ يصارع الضحك والفصل كله يجدها فرصة هائلة للانفجار الضاحك ، والمدرس فى غضب ضاحك أيضا يصيح : « مش فاهم ايه الموضوع بالضبط » . قال الولد الذى ضحك : « همــا اللى عارفين .. أصلهم جيرانه » . الحرج الذى فى الدنيا كلها يتجمع على وجهيهما وينظــران الى بعضهما كأنهما قد أرشدا الى تهمة خطيرة تقطع لهــا الرقاب وكل منهما يحمل الآخر مسئولية اذاعة النبأ . صاح المدرس فى قوة : « فيه ايه يا سبعاوى انت ، وقرموط ؟ » . فتح كل منهما فمه ثم أغلقه . صرخ المدرس : « قول أنت الاول يا سبعاوى » . قــال سبعاوى : « قرموط هو اللى جاره » . قال المدرس : « فيه ايه يا قرموط ؟ » . وقف قرموط دفعة واحدة كالصاروخ ، وكالقذيفة انطلقت منه الجملة مصكوكة مسرسعة : « عبد الفتاح بيطلع الطرب مع أبوه يوم الخميس هه » ثم انحط جالسا كأنه ينكران هذا الصوت صوته ..

ضج الفصل بالضحك وقال المدرس وكان مهزارا كبيرا يتنكر فى وجه جاد الملامح قاسيها : « يعنى ايه بيطلع الطرب مع أبوه هه » . وهنا تطوع أكثر من ولد من الصفوف المتاخمة فشرح ما يقصــده قرموط ، حتى عرفنا وتأكدنا ان زميلنا فى الفصل « عبد الفتاح خميس الجميعى » يتخلف عن الدراسة يوم الخميس من كل أسبوع

لانه يزور القرافة مع أبيه الفقى حيث يقرأ أبوه آيات القرآن على أرواح الموتى . يتنقل من طربة الى أخرى فيجلس أمام زوار الطربة من تلقاء نفسه متقرفصا فيستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ويبدأ القراءة . فان استعذب زوار الطربة صوته تركوه يقرأ الربع وأعطوه من الاسبتة الملحقة بهم بضع أرغفة وصحن قراقيش وقرص ، وربما كانوا من المبسوطين فمنحوه فوق ذلك حفنات من التمر والخروب والسودانى والفلوس ، فان لم يستعذب الزوار صوته امتدت احدى العجائز الى السبت ودفعتها اليه برغيف وبعض قراقيش مصنوعة بالزيت لا بالسمن .

هنا تناثرت التعليقات بشكل أدهشنى . فمن قائل أن الفقى خميس لا يتمتع بحب زائرات القرافة العجائز أبدا ، فهو دائما لا يقرأ سوى الآيات التى فيها جهنم الحمراء خالدين فيها أبدا ، وخذوه فغلوه ، حتى أن احدى العجائز صرخت فيه مرة : « صلى على النبى ، صلى على النبى .. انت معندكش غير جهنم جهنم .. فال الله ولا فالك يا شيخ .. خذ يللا مع السلامة » ، وأعطته شقتين من العيش المقدد نظر فيها مدققا بعينه السليمة ثم وضعها فى جواله ونهض قائلا : « بقى كنتى عايزة جنات تجرى من تحتها الانهار بدول ؟! » ، ثم انتقل الى طربة أخرى ليبدأ نفس الآية ، وقال الولد سبعاوى أنه سمع أباه يقول ان الفقى خميس لا يحفظ من القرآن غير هذه الآية وبعض قصار السور . رغده الولد قرموط فى جنبه صائحا : « لا يا عبيط .. ان الفقى خميس يبدأ بجنهم ، فاذا لقى ان الرحمة فيها قراقيش وقرص بالسمن انتقل الى جنات تجرى من تحتها الانهار ». انشال الفصل كله من الضحك وعجز المدرس عن الاحتفاظ بوقاره ، الا أنه بعد أن خبط بقدمه فى الارض مثلنا انشد جلد وجهه فجأة ودمعت عيناه واحمرتا ، ولولا أنه استأنف الضحك لقلنا أنه البكاء الحار .

أبدا لم يكن ككل الاحداث التى مرت وتمر كل يوم بل كل دقيقة . ثمة أحداث أو وقائع متغيرة عابرة تترك بصمات وعلامات لا يزيلها حتى أن يذوب الجسد نفسه . أبدا لم يكن « عبد الفتاح خميس الجميعى » ابن الفقى هو نفسه الذى عرفناه قبل ذلك الحادث العابر رغم ما يحدث فى فصلنا من أحداث . فى الحصة التالية تصادف ان كان نفس المدرس « أبو المكارم أفندى » هو الذى سيعطيها لنا

بدلا من جابر أفندى . ما ان بدأت الحصة حتى انبثقت من عيون الشياطين نظرات تخطب ود المدرس ليستأنف الكلام فى موضوع القرافة ولم الرحمة بقراءة القرآن . اشهد ان المدرس شرع أكثر من مرة فى الانسياق والاستجابة لاستفزازهم لكنه كان بالابتسام الخبيث يأمرنا بفتح الكتب مستخدما أسلوب النقر بالعصا ، انسابت الحصة وقتا طويلا والمدرس مستغرق فى شرح مسألة الحساب .. والشياطين يتابعونه في يقظة تجب الغضب لكن تلك اليقظة التى تخفى تواترا مسرحيا كأنما هناك اتفاق على موضوع مؤجل مؤقتا لحين العودة اليه . فجأة زحفت على أرض الفصل ظلال كثيفة عبرت الشباك المطل على الممر ثم استدارت وامعنت فى الزحف . انتفض المدرس فى الحال ورمى بالطباشيرة فى الارض صائحا : « قيام » . فاندفعنا واقفين فى دربة واحترام فاذا به حضرة الناظر شخصيا ومعه شيخ المدرسين ريشة افندى وأفندى آخر مهيب عرفنا فى التو انه المفتش . صاح المدرس بعد برهة : «جلوس»، فجلسنا فى صمت متوتر متحفز ..

ثم أن المفتش اتجه مباشرة الى مكتب المدرس فجلس اليه وتناول دفتر التحضير وراح يفره ويؤشر بقلم احمر فيما كان المدرس يسألنا سؤالا من الشرق وآخر من الغرب كأنه يقلبنا أمام المفتش ، الذى اعتدل فى جلسته ناظرا الينا فى تأمل عميق مخيف سألنا المدرس أمام المفتش واحدا واحدا وفى كل مرة ينظر للمفتش كأنه ينتظر منه أن يقف قائلا : « كفاية » ثم ينصرف ، لكن المفتش ظل فى جلسته والناظر فى وقفته المتابعة ، لعله أراد أن يساعد على افشاء سر ما قد يكون فى الفصل من ضعف ، فأشار الى « عبد الفتاح خميس الجميعى » قائلا :

ـ انت .. قوم كمل الجواب .

لكن « عبد الفتاح لم يكن هنا . كان شاردا كالعادة لا ينم وجهه الغليظ الاملس على انه يفكر أصلا ولذا فقد ظل جالسا كأن الحديث لغيره فبدا كانه يتجاهل حضرة الناظر . اغتاظ المدرس وصاح : « أنت يا جدع يا اسمك ايه » وكانت فى سوته نبرة احتقار . قال ولد مجاور : « أنا ؟ » . قال المدرس : « لا . وأشار ناحية عبد الفتاح فلم يتحرك » فصاح المدرس فى غيظ : « انت يا جدع يا .. طربى » . وهنا انفجرت القنبلة داوية لبرهة سريعة لدهشتنا لم يحدث أى شىء مخيف مما توقعنا حتى المفتش نفسه ابتسم

وعوج شفتيه فى قرف ثم وقف قائلا : « ايه طربى دى ؟ » فتطوع المدرس وشرح للمفتش كيف ان عبد الفتاح يساعد أباه فى قراءته فى القرافة .. الخ . وكان يهز يديه عند انتهاء الكلام كأنه يتبرأ من امثال هذه التلاميذ القذرة ..

الحق لم يعلق المفتش بشىء . ولكن حضرة النـــاظر تقدم دون مناسبة وشرح لنا درســـا هاما ، هو أن المدرسة يجب أن تكون مدرسة والتعليم تعليما ، أى ان التلميذ لابد أن يتفرغ للدراسة حتى يكون صاحيا عند الامتحان ، ثم راح يشتم أولئك الفقهاء المزيفين الذين يتاجرون بالقرآن ويلحنون فيه وكيف ان جهنم هى مثواهم وبئس المصير ، ونصحنا الا نتعلم منهم القراءة ان استمعنا اليهم ، فهم مجرد طربية لم يجودوا حفظ القرآن على الوجه السليم بل لم يحفظونه جيدا ، ثم أنهى نصائحه بأن طلب من عبد الفتاح أن يقف ليجيب على الســـؤال الذى كان محل اجابة من قليل . فوقف عبد الفتاح كالفريق يتصبب عرقا وتختفى كل ملامحه من وجهه . وكان قد نسى كل شىء أو لعله لم يكن قد عرف شيئا ليتذكره فوقف كاللوح لا ينطق . أشار له حضرة الناظر ـ وكان قصير القامة ممتلىء الجسد ، ضيق العينين ، قاسى النظرة ، يرتدى جبة وقفطانا وطربوشا بذر ـ وقال : « تعال .. اخرج » . انزاح عبد الفتاح عن التختة قليلا يظهر جلبابه الممزق المترهل وقدمه الحافية الغليظة ووشم العصافير الاخضر المرســـوم على جانبى راسه . وكان المفتش ينظر اليه فى اشمئزاز وقرف ، وكل من الناظر والمدرس ناقم عليه لانه أثار قرف المفتش . غير ان المفتش اشار له أن يعود الى درجة ، ثم عاد فأشار للناظر وللمدرس اشارة معناها : « أيه البلاوى دى ؟! » .. فاعتذر المدرس قائلا ان هذا الولد وأمثاله حصيلة لف الخفراء على البيوت والحقول لجمع الاولاد بالقوة كى يتعلموا التعليم الالزامى . وقال أيضا ان المدارس خلاص عليه العوض قد انفتحت على وسعها ليدخلها الحفاة والشحاذون والطربية ! ..

سمع المفتش هذه الـــكلمات وأرسل للمدرس نظرات غامضة ثم اشر فى دفتر التحضير تأشـــيرة أخيرة ثم نهض وانصرف كأنه قد زعل ..

ولا يعرف حتى الآن ان كان قد زعل حقا أم لا ولكن « عبد الفتاح خميس الجميعى » لم يعد الى المدرسة مرة ثانية ابدا .

لا احد فى فصلنا ينسى هذا الموقف . أنا بالذات لم أكن أستطيع نسيانه ، اذ أن أبي كان قد أصر على تحفيظى القرآن على يدى واحد من نفس ماركة خميس الجميعى أى الذين يقرأون فى القرافة نظير الرحمة التى يجمعونهـــــا . والحظ الاسود وحده هو الذى أوقعنى فى المحظور . وفى يوم خميس ، ألعن يوم فى حياتى كلها ، شاء الحظ العاثر أن يسافر أبى الى مدينة دسوق لأمر ما ، وجميع أمور أبي عاجلة وهامة وسفره الى دسوق لا يكون الا لمهمة ، أن يعرض نفسه على الحكيم ، أن يشترى فانلات بكم ، أو يحضر جلسة القضية ، يومها كان النوم عظيما حين تكاثروا على وأنهضونى عن الفراش بالعافية ، وقالوا فى زغد وتلطيش مغيظ : « قوم وصل أبوك للمحطة بالركوبة » . فقمت أدعك فى عينى ، وذلك أن مهمة توصيل أبى بالركوبة الى المحطة وانتظــاره عندها عصرا هى المهمة الوحيدة التى وزعوها على من شغل الدار والحقل احتراما لــكونى تلميذ فى المدرسة ، مهمة كأنها الفسحة حيث سأركب الحمار ذى السرج خلف ابى واعود به وحدى فأخترق بكارة الندى على الطريق والحق بموعد دخول المدرسة . لــكن أبى استيقظ متأخرا واشعل فى الدار حريقا من الغيظ والغضب وكلنا أصبحنا نداريه السكات..

غير أننى ما كدت أدلف الى الزريبة حتى ارتددت الى القــاعة صائحا فى ولولة صبيانية .

– بس ده النهاردة الخميس !

وكنت على وشك البكاء . فصاحوا جميعا فى نفس واحد ساخر :

– طيب وايه يعنى .. عارفين ..

قلت وقد استبوخت نفسى :

– لازم اروح النهاردة اول واحد .

قال أبى وهو على حافة الانفجار :

– ليه بقى ياخويا .. دا حتى النهـــاردة الخميس يعنى نص يوم .. يا سيدى بلاش منه خالص !

صحت وانا على وشك الجعير :

– كله كوم والنهـــاردة كوم .. ممكن اغيب عن المدرسة فى أى يوم ممكن اغيب عنها خالص الا يوم الخميس بالذات لازم اروح !

شرار الغضب يتطاير من عينى أبى .. اسرعت أمى تتلقف الخيط :

ـ ليه يا ابنى اخواتك كلهم متوكلين على الله حيشـقوا طـول النهار ..

ظللت واقفا مكانى والرعشة والتردد فى اوصالى . ثم اذا بالجحيم ينفتح علي من كل ناحية ، الشلاليت والبونيات تريد أن تسحقنى فى الارض بقسوة ، ما اكاد اتماسك للنهوض حتى تجيئنى لطمة تلصقنى بالزير فيكسر وتتطاير امواجه وقطعـه ، وانا لا اكف عن الصراخ والبحث عن ملاذ ، حتى اذا ما التحقت بالزريبة صاغرا تعقبنى أبى بقحف من الجريد الخشبى راح ينهال به فوق جسدى حتى ادركت أنه يزمع قتلى دون شك فلما أنهكه ضربى رمى بالقحف ولهث قائلا : « والمدرسة دى ما عنتش رايحها تانى .. من بكره تسرح فى الغيط.. يللا فك الحمار » . لم يكفه ذلك العقاب الرادع بل ركب الحمـار وحده وتركنى أجرى وراءه طوال خمسة أو ستة كيلو مترات الى المحطة ..

فى طريق عودتى كنت انخس الحمار فيبرطع بأقصى سرعته . فمـا ان وصلت الى اول حارتنا حتى نزلت عن الحمار وتركته يأخذ طريقه كالعادة الى الزريبة ، ثم اندفعت أجرى لالحق بالمدرسـة وأريهم نفسى على الاقل ، وصحت فى شقيقتى الصغيرة منبهـا عليها أن تسوق الحمار الى الدار .

وكانت الحصة الثالثة قـد بدأت والشمس لا تزال خضراء فى حديقة المدرسة،تسللت جريا فى الممر حتى فصلنا .. لدهشتى وجدته هالى الصخب . وحين دخلت هبت فى وجهى عاصفة من الضحك المندهش وأشارت الاصابع نحوى قائلة : « اهو طلع براءة » . كانت الدموع الجافة لا تزال متصلبة فى عينى وفوق خدى ، وآثار الضرب واضحة فى كل جسدى .. وحالة من الاعياء الشـديد تضع فوق صدرى وظهرى أجولة من الظلط ، العجيب أن أحدا منهم لم يلحظ اى تغيير مما طرأ . فلابد أنهم فى أمر جلل .. اتخذت طريقى الى درجى صائحا : « فيه ايه يا عيال ؟ » قال الولد رمضان : « تعلمش ابو المكارم افندى غاب النهاردة ! » . قلت وقد غاب عن بالى كل شيء : « طب وفيها ايه يعنى ؟ » . قال الولد طلبة : « اللى يغيب يوم الخميس يبقى ايه ؟ » . قلت على الفور : « يبقى طربى » . فاذا بالفصل كله يرتج من الضحك . ثم اذا بالناظر نفسه يقف فى قلب الفصل فنتسمر فى اماكننا . خرج صوته الرفيع يزيق مثـل

مواء القطط : « ايه الهيصة دى .. انتوا فين .. فى الفيط ؟ .. انتوا ايه ؟..غجر ؟..حوش ؟ مواشى ؟ . شيء بارد ، ثم استدار خارجا فى عصبية فاصطدم بالفراش فاهتز طربوشه ووقع لولا أن تلقفه بيديه على صدره . لا نعرف ان كنا نحن الذين ضحكنا أم غيرنا ، انما الذى ادريه ان حضرة الناظر استدار نحونا بنظرة حاقدة ثم شيع الى وجوهنا بصقة تناثرت على الصفوف الامامية كلها ، ثم خرج لاعنا اباء الزمن الاغبر الذى رخص لنا المدارس ! ..

على أنه ارتد فجأة ساحبا الفراش من خناقه ثم دفعه فى فراغ الفصل بغيظ صائحا : « مدهم لى واحد واحد » . فبدون تردد تقدم الفراش وسحب اول واحد صادفه ثم طوقه وقلبه فى الارض . كانت مناحة . عشرون عصاة أشعلت النار فى قدمى ، وكنت من فرط اللهب انتفض فتصطك رأسي بالارض وعندما دق الجرس الاخير تساندت على ولدين من حارتنا وقد تعففت عن البكاء حيث لم أجد صوتى وكففت عن التأوه حيث يخرج من ضلوع مهمشة .

دخلت دارنا ذليلا شقيا لافاجأ بصوات أمى المشحون بالولولة . فما أن وقع بصرها على وجهى حتى صاحت فى ضاربة صدرها بيديها فى عنف : « وديت الحمار فين يا وش الخراب .. وديته فين ؟! » . انهارت انفاسى : « دانا سايبه للبنت على أول الحارة » . صارت تلطم خديها وتشد صدر الثوب صائحة : « أهو ماجاش .. نهارنا أسود . اجرى دور عليه » . استدرت خارجا وقد دبت فى حماسة غريبة . هل يكون قد سرح الى الحقل الذى تعود أن يأكل فيه البرسيم منذ اشتريناه ؟ بسيطة . ذهبت الى « الحوض الجديد » ، مسحت الطريق بعينى فلم ار أثرا سوى الشمس كتلة لهب والأرض فرن وجسدى هو الرغيف . أيكون قد عثر عليه احد أخوتى فاصطحبه الى حوض « أم ملوخية » حيث يعزقون ؟ . بعد نصف ساعة كنت هناك . فلما علم اخوتى بالخبر صاروا يولولون كأمهم وأنا أبعث بكاءا كالزئير المكتوم . حتى جاء على صوتنا رجل استطيبه دائما هو عم فرحات الجناينى ، جناينى هو لكنه يعرف الحى كله وملم بأخبار تجاره واعيانه وأشقيائه ، ويبيع الفاكهة فى الاسواق على نطاق واسع . انفتحت أبواب السماء حين استوقفه حالنا ، فلما علم بالتفاصيل قال بكل بساطة : « ع العموم أنا عارف اللى باع لكم الحمار .. وأنا دلوقت رايح بلدهم اشترى بردعة .. حد منكم ييجى

معاية يسأله ليكون الحمار رجع له تانى » . صاح أخى الاكبر : « اركب وراه ياد بسرعة » . ثم ســـاعدنى على الركوب خلف عم فرحات .

بعد مسيرة طويلة دخلنا القرية الصغيرة . ثم اننى رأيته فجأة فارتعدت مفاصلى ودفنت رأسى فى ظهر الجناينى . وقلت : « مش معقول » . قال الجناينى : « مالك » . قلت : « أصل شفته » . صاح وهو يهم بالنزول : « الحمار ؟ » . كتمت ضحكى صائحا : « المدرس بتاعنا .. أبو المكارم افندى » . قال الجناينى : « ما هو من هنا .. دى بلدهم » . وكان المفروض ان انزل واضرب له تعظيم سلام .. كما نفعل كلما صادفنا فى الشارع أحد مدرسينا لكننى لم اكن فى حال تصلح لاى شىء فأخفيت رأسى فى ظهر الجناينى .

تملكنى الرعب حين رأيته يحود فى نفس الحارة التى نتهيأ لدخولها غير انه اختفى فى أول بيت فى الحارة ، وتوقفنا أمام البيت المجاور حيث خرج لنا صاحبه مرحبا بنا .. ودلفنا الى وسط الدار فأقتعدنا مصطبة رفيعة .. سألنى الرجل عن صحة أبى وعن حال الحمار ، فاندفعت أبكى ، تطوع الجناينى بحكاية القصة ، فزام الرجل فى أسف حقيقى وأكد انه لم ير الحمار منذ باعه . نهض الجناينى واقفا وطلب ان يتركنى وديعة حتى يذهب الى مشواره ويعود ليأخذنى . فرحب الرجل بذلك وقال أنها فرصة لعل الحمار يجىء خلالها . ولما خرج الجناينى نصحنى الرجل بأن أتمدد قليلا لاريح جسدى المتعب . كانت المصطبة ممتدة فى الدهليز بجوار حائط قزم يفصل بين بيت الرجل وبيت « أبو المكارم أفندى » ، فقلت للرجل : « انتوا قرايب أبو المكارم افندى؟ » فقال الرجل ان أبا المكارم أفندى اشترى من أخته نصيبه فى الدار وجاء ليشاركهم فيها فأقام هذا الجـــدار الفاصل مؤقتا . واذا بصياح يرتفع أواره من دار « أبو المكارم أفندى » الذى ميزت صوته يصيح : « يا راجل انكسف .. يا راجل عيب عليك .. انت السبب فى الفضايح دى كلها » .. واذا بالجدران تهتز فى عنف ويعلو الصياح والصراخ ، فخرج الرجل يجرى قائلا : « عن اذنك اصالح الفجر دول واجى » . وكان قد بدأ يفد من دار « أبو المكارم أفندى » صوت مشروخ مخذول يقول : « يستعر منى .. اعمل ايه أروح فين .. دى شغلتى اللى اتربيت عليها وربيته منهـا

أبطلها ازاى وأبطلها ليه ؟؟ » . واندمج فى بكاء ظل يتباعد حتى اختفى .

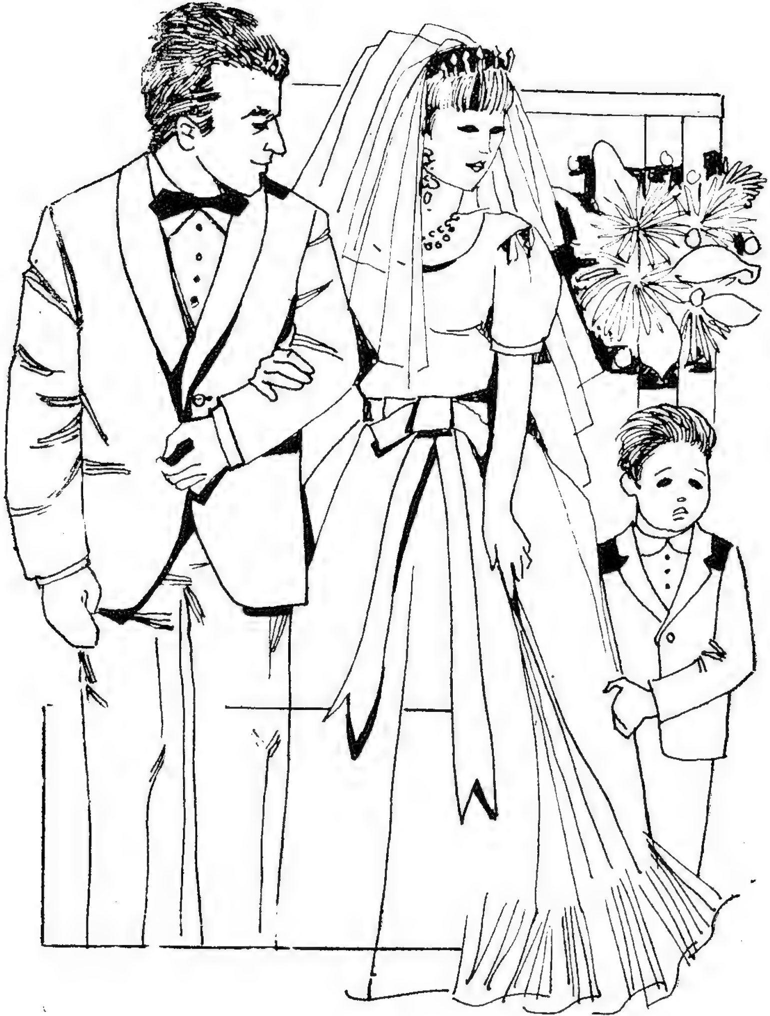
طال بى الوقت وحدى فسقطت فى بئر النعاس ، فرأيتنى أضرب فى طرقات تفضى من جميع اتجاهاتها الى خلاء موحل موحش يكتنفه ضباب ورعد . وكنت لا أزال أرتعش حين أيقظنى الرجل فى لطف لاجد منظرا بهيجا : الحصيرة مفروشة تتوسطها طبلية كبيرة حافلة بالطعام و ... من هذا ؟ .. دعكت عينى وصحيتها وتأكدت من أنه اخى الاكبر . قلت فى نفسى أن أمى أرسلته ليلحق بى قبل أن أفكر فى الطفشان ، ثم نزلت أتغذى .. وقلت للرجل : « هو ايه اللى حصل فى بيت ابو المكارم افندى ؟ » . قال : « الحكاية ومافيها انه عايز أبوه يغير شغلته .. أصله لمؤاخذة طربى » . سقطت الملعقة من يدى وصحت : « .. طربى ! .. أبو المكارم أفندى .. أبوه بيشتغل طربى ؟ .. لا اله الا الله » .

ثم اتصدت نفسى عن الاكل تماما وصرت أمسح يدى وفمى . صاح الرجل دهشا : « ايه ده .. كل » قلت أننى شبعت والله ، ابتعدت عن الطبلية . فمال اخى الاكبر على اذنى هامسا أنهم عثروا على الحمار سارحا فى خرابة العكايشة !

---

٨ ديسمبر سنة ١٩٨٠

قلب خسايه



قلب خساية

كان وجهه ـ بكل طفولته الشقية البلهاء ـ أول حاجز سقط بيني وبين خطيبتي كجدار من الهم الاسود . لم يكن ابنهـــا بالطبع والا ما تزوجتها أصلا ، لكنه كان أخاها الذي ولد وهي فتـاة في سن تجتذبها الامومة ، فعنيت به وليدا ثم طفلا فنشأ لا يعرف سواها أما ، ولا يستغيث الا بها عند الحاجة . ويوم خطبتها لم أعن بكل هذه التفاصيل ويوم خطبتي كنت قد صرفت كل مدخراتي الا أقلها دون أن يرمش لي جفن اذ أنا قد وصلت أخيرا الى بلوغ اللحظة التي تمنيتها وجئت أصنعها في قريتي : أن آخذ خطيبتي الريفية البريئة نصف المتعلمة هذه وأســافر الى المدينة المتاخمة يوما أو بعض يوم أداوي فيه كل جراحاتي القديمة وأمارس الحياة محبـا لا تطارده المشاكل والمقلقات ، وأتعـرف على شخصية خطيبتي من تكون وما هي الحلاوة التي تعدنا بهـا الايام والسنون المقبلة ، فهي اللحظة التي تفصل بين عهدين حاسمين في حيـــاتي ، ولسوف أعيشها صافيا لها وحدها ، لاول مرة ســـوف أمنح نفسي بكليتي للحظة ، لحسابها أنفق وأعطي كافة الحواس ، لاكون ـ اللحظة ـ أنا نفسي ، أنا قلب الخساية بعد أن تزال عنها كافة الاوراق والاغلفة التيلية وتصير مقشرة تنضح بالندى ، وبل الصدى . الثقة في نزاهتي وشرفي معروفة مسبقا ومؤكدة لدى أصهاري ، ولهذا فهم لا يفعلون حركات قرعاء كلما انفردت بها . وليس ثمة من رقابة متطفلة على الاطلاق ، بل حين عرضت فكرة السفر الى المدينة كتتويج لحفل الخطبة والخروج منه الى شرنقة المحبة والتآلف رحبوا كل الترحيب وتطوعوا بتقديم الخدمات وتسهيل مهمة السفر قدر الامكان ، حتى سائق السيارة الملاكي سوف ينزلنا في المدينة وينصرف الى شأنه ليعود في الوقت الذي نحدده في المكان الذي نحدده . .

وكانت خطيبتي قد سبقت الى السيارة فجلست وحدها في المقعد الخلفي ودعيت أنا للحاق بها ، فألقيت نظرة أخيرة على المرآة تعرفت فيها على بعض ملامحي الحقيقية وسط ما صنعته في نفسي من مظاهر احتفالية عالية المزاج . وخرجت أربط زرار البذلة وأهرب من نظرات

المجاميع التى وقفت بلا حصر هنا وها هنـا لتشييعنا بزغرودة أو أكثر . وكان كل شيء مبهجا الى أقصى حد . فلما فتحت باب السيارة مثل البيك الصحيح ، أعدت اغلاقه بعد دخولى مثل البيك الاصح ، زحفت فى رصانة حتى التصق كتفى بكتف خطيبتى ، رحت أهرب مرة أخرى من نظرات العشرات من الصبية والولدان والرجال والنساء الواقفين ينظرون الينا كأننا نصور مشهدا فى فيلم . تقع عينى على ظهر السائق من عرض كتفيه وانسياب الـكتفين من العنق حيث تنفصل الرقبة عن الجسد بدائرة جميلة من الاقطنـــة ، والطاقية الصوف كزهرة اللوتس مقلوبة على رأسه ، استشف نبالة أصيلة وأفخر بينى وبين نفسى أن هذا الرجل الشهم ينتمى الى أسرتى ولو من بعيد . وكان هو يقوم بتسخين السيارة غير ملق باله الينا . اذا بعويل حاد يصك مسمع الكون كله بلوعة مشروخة قائلة : « أختى آه .. سيبونى .. عايز أختى » ، وعشرون رجل وسيدة وصبى يتكاثرون عليه ويمنعونه برفق تارة وبعنف تارة أخرى ، ولكن أى قوة فى هذا الكيان الضئيل ؟ فى الثالثة أو الرابعة من عمره ولكن قدرته فى مقاومة القوم والخلاص منهم كانت أعتى من قوتهم جميعا . كانت كجمرة من لهب يأبى الا الاندفاع نحو سيارتنا حتى لو دهسته العجلات ! .

وكان لابد أن يهتز قلبى وينكسر . لقد بذلت طاقة كبيرة لازعم لنفسى أنه مجرد طفل سخيف من أطفـــال الجيران ، وكدت أنزل وأداعبه وأراضيه حتى يهدأ . ولكننى فوجئت بأنه « أشرف » ، أى شقيق خطيبتى الاثير . فنظرت فى وجهها فوجدته جمرة لهب تريد أن تلتحم به فى الحال ، وصارت تضرب صدرها قائلة فى شفقة ملتاعة : « يا حبيبى ياخوية ! » . فخيل الى من عظم لهجتها وخفوت صوتها انه مات . لكنها بسرعة فتحت الباب المجاور لها قائلة فى صوت كمأمأة الماعز : « تعالى ياخوية .. تعالى يا أشرف » . وكان هو قد أفلت من ذراعى أبيه المفرهدين واندفع الى حجرها يكمل عواء النكير .. نظرت فى وجهه بقليل من الحقـد ، وصفين من الدموع الغزيرة ، ينهملان على خديه ويلتقيان مع ما تفحه أنفه من غثاء . وحقدت عليه اكثر حين رايت نفس الصفين من الدموع ينهملان على خدى خطيبتى ويفسدان زينتها تماما . وتضاعف حقدى عليه حين رأيتها تربت عليه فى حنان وتأخذه فى صدرها قائلة له انها خلاص قد عادت اليه ولن تتركه ثانية ، ثم تخرج منديلها ـ واحدا من الدستة التى أهديتها

لها ـ تمسح كل وجهه ، فكأنما دهنت وجهه باللزوجـة فأطبقت المنديل وأعادت تنظيفه جيدا . وكان الاحرى بها أن تلقى المنديل من النافذة الى الشارع مباشرة لكنها دون تردد أعادته الى حقيبتها . ثم اذ بها تفعل ما أذهلنى ودمر كل قواى ، اذ بكل بساطة أمرت السائق قائلة : « اطلع يا عباس » .

اطلع يا عباس ؟! لكننى لم أنطق ، وتركت عباس يعطى الاولانى للسيارة ويدوس البنزين وتتحرك السيارة ، فظننت أن فى الامر ثمة خدعة تناور بها على أشرف وسرعان ما ننفرد بعدها. وظل السائق يتلكأ فى الشارع العمومى لحظات طويلة ولكنه لما وجدالصمتمطبقاداس على البنزين وانعطف الى الطريق الزراعى فى اتجاه المدينة . فما أن استقلت السيارة بالطريق حتى رأيت خطيبتى تفعل ما أحالنى الى خرقة بالية ، اذ وضعت أشرف بينى وبينها فاضطررت صاغرا وأنا فى غاية الانكسار ان انزاح موسعا لجسد أشرف ، وتكرمت عليـه فأعطيته بعض الراحة ، وخفت أن تبدو أبوتى المنتظرة محل شك فربت على ظهره ومسحت شعره فى ود مفتقد ، ثم أشعلت سيجارة وبقيت صامتا طوال الطريق . وكان الطريق طويلا ومحاطا بالاشجار والمزارع والبنايات وهو طريق بعيد جدا غير مطروق ، ولكن قريبى السائق المجامل فضل أن يسافر بنا منه لاعطائنا فرصة للابتهاج والهدوء مدة أطول كنوع من النزهة وهى بالفعل تستحق أن تكون هكذا ، لكننى فجـأة وجدتنى أفكر فى مسائل عويصة جدا تجلب الهم . بدأت أتذكر ما سأدفعه وارده وأنفق منه حينما أعود منفردا الى المدينة ، ماذا سيترتب على كذا وماذا سيحدث لو لم ، وماذا ينتج اذا ما .. الخ .. وحين أطفأت السيجارة فى أرض السيارة بقدمى فوجئت بكومة من الاعقاب خلفها ، فوسعت ما بين ساقى ، وبلذة عجيبة أشعلت سيجارة أخرى وأسلمت نفسى من جديد لمقعد السـيارة يحركنى كمـا يهوى ، دماغى يسابق الاشجار وأعمدة التليفونات فى السعى وراء حلول لمشـاكل مادية وسكنية وعملية ووظيفية ، هى نفس المشاكل التى تستغرقنى فى المدينة كل يوم بل كل برهة عند اليقظة وفى المنام ، لكننى فوجئت بها تنهال على كأنها دماء كل هذه المشاكل وقد تم تكريرها وها هى تتدفق الآن فى كل عروقى وشرايينى .

ثم ان خطيبتى غمغمت كمأمأة الماعز قائلة : «ايه ده مش تقول

له ازيك يا أشرف حمد الله على السلامة يا أشرف !؟ » . فهززت رأسى قائلا فى بسمة بلهاء : « آ . . آ . . ليه خير . . هو كان فين؟» . قالت : « بالسلامة على وصولنا . . مش خلاص بقينا فى المدينة » . ونظرت فوجدتنا قد دخلنا المدينة بالفعل . وفوجئت بأننا مطالبين بالنزول من السيارة فنزلت . ونزلت هى ساحبة أشرف من الآخر . ورجع عباس وعدل السيارة نحو الرجوع قائلا فى ابتسامة نصف سعيدة : « طيب . . يوم سعيد على كل حال . . ان شاء الله امتى وفين ؟ » . فنظرت الى خطيبتى كأنها المنوطة بالامر . فنظرت هى بدورها الى متسائلة . فقلت بقليل من الحرج أننا سوف نلف بعض الوقت ونتغدى وان على عباس ان يقابلنا على هذه المقهى عند آذان العصر مثلا . فلوح لنا بيده وانطلق ومضيت بجوار خطيبتى صامتا . الشارع هنـــــا ليس للمشى أبدا ، ولهذا فان أجسادا وسيارات وموتوسيكلات قد فصلت بيننا ، وصارت خطيبتى تطلق الصوات فى الشارع خوفا على أشرف !! . وكنت أتوقف عائدا اليها فى كل مرة مرتعبا تتدفق الدماء فى وجهى خاصة بعد أن يتدخل بعض السابلة فى احتواء خطيبتى وفرض العناية عليها . .

ولم يكن قد بقى فى ذهنى ثمة برنامج . وكانت البذلة السوداء الانيقة قد تغبرت وألقى عليها بتراب الشارع كله ، وتعبت خطيبتى من قرص الحذاء لكعبها . جلســـنا على المقهى ثم اشترينا هريسة لاشرف وشاركناه فى أكلها ، ثم شربنا « حاجة ساقعة » ثم قهوة لى ثم أخلدت الى صمت تفرجت خلاله على الناس والباعة المتدافعين ، ثم قالت خطيبتى : « حنروح فين بعد كده ؟ » قلت : « هو احنـــا كنا عايزين نعمل ايه هنا ؟! » . قالت : « أنا عارفة ؟ مش انت اللى قلت السفر السفر ؟ » . قلت فى سأم : « آه صحيح مش عارف » ثم تذكرت فافتعلت بعض الابتهاج صائحا : « آه . . المصوراتى . . أهم شىء . . المصوراتى ياللا بينا نتصور » . وقمنا . . ألقينا بأنفسنا فى نهر الشارع من جديد نرفع رءوسنا هنا وها هنا لالتقاط اللافتات التى تنبىء عن مصور . وتذكرت ان اسم مصور بعينه كان فى مفكرتى اقترحه أحد أصدقائى لكننى تكاسلت عن اخراج المذكرة من جيبى ، وما أن رأيت لافتة مصور حتى صحت قائلا : « أهه . . يلا » وعرجنا عليه فاذا هو أحقر مصور فى البندر ــ لكننى معذلك تغاضيت وجلست معهـــا وأشرف فى غرفته المظلمة القميئة ، وحين دعينا للتصوير كان اشرف يتشبث بذيل شقيقته فى ذعر وهى لاتنى تطمئنـــــه

وتداعبه . وقال المصـــــور : « انتو لتنين مع بعض ؟ » . فقلت : « أيوه » . فصاح آمرا : « تعالى هنا يا شاطر » فانفتحت ماسورة البكاء الجارف المفيظ تغرق قاعة التصوير فانقلبنا جميعـا نساكته ونعالجه ونسترضيه بكافة الاساليب دون جدوى . ولم يكن ثمة من مفر ، اذ جلست خطيبتى عـلى مقعـــــد التصــــــوير واضعة أشرف على حجرها . فجلست بجوارها ، وبدون ارادة منى جعلت فاصلا قليلا بيننا توقعا لمثول أشرف ، وبالفعل أنزلته أخته وحشرته فيما بيننا فانزحت عنه كأننى أتحاشى وباءا .. والتقط المصور ماشاء من صور ! ..

وخرجنا من محل المصـــــور . وطلب أشرف بالونا فاشتريته ، وشخشيخة فاشتريتها ، وفانوسا فاشتريته . فتجرأ وطلب تفاحا فاشتريت كيلو . وقالت خطيبتى : أين نذهب بعد ذلك ؟ . فقلت : الى الحاتى لنتغدى . قالت : « ماليش نفس دلوقت » . قلت : « ولا أنا .. لكن نروح يمكن يطلع زحمة نحجز مكان » . بالفعل كان زحاما . وأكلنا ، وكان أشرف يترك طبقة ويأكل من طبق أخته . ثم خرجنا من عند الحاتى وقد فككت آخر عشرة جنيهات فى حوزتى ، رد لى منها حوالى ست جنيهات ، وقالت خطيبتى : « أين نذهب بعد الآن ؟ » . قلت : « لا أعرف » ثم وجدنا أنفسنا تلقائيا نتخذ طريقنا الى المقهى الذى ينتظر فيها عباس . فلما وصلنا كان قد بقى على أذان العصر ساعات . قلت لخطيبتى : « بعد أن نستريح قليلا نفـــكر فى نزهة قصيرة نعود بعدها لملاقاة السائق » . فقالت : « نعم » ثم جلسنا نشرب الشاى . وفوجئت بأن خطيبتى كانت قد لفت بقايا الكباب المتبقى من أكلنا عند الحاتى فى ورقـة وحشرته فى جيب أشرف خوف الجوع فى الطريق ، فنزع اللفة وفردها واستأنف الاكل من جديد وصارت هى تساعده وتعنى به . أحسست بالضيق والملل ، فاستأذنت لأشترى سجائر وخرجت أتنفس فى الشـارع . رحت وجئت على الرصيف عدة مرات فى بطء شديد . وكانت مشكلتى مع زملاء الجمعية التى قبضتها مقدما للاستعانة بها فى خطوبتى قد راحت تعاودنى من جديد وتلح على : كيف سألتزم بدفع هـذا المبلغ الكبير كل شهر أنا الذى يتوزع راتبه الشهرى قبل رجوعى الى البيت . وحتى وصل عباس لم أكن قد عثرت على دليل واحد يقنعنى بالقدرة على دفع المبلغ ..

كل هذا كوم ، ويوم الدخلة كوم آخر . فالذى حدث اننى عدت

الى مدينتى البعيدة ومكثت بها ســنوات خمس أدبر مسكنا ، ثم أعاننى الله بشكل ما ووجدت الى الدخلة سبيلا ميسرا فدخلت ، وكان أعجب زفاف . كنت قد نســـيت أمر أشرف طول السنين الفائتة رغم أن خطيبتى كانت دائما تبعث لى سلامه فى خطاباتها التى لم تكن تدور كلها الا حول أشياء بعينها لا تخرج عنها بحرف واحد : ماذا فعلت فى كذا وماذا تم فى الامر الفــلانى وهكذا حين تجمعت خطاباتها صدفة أمام عينى ابان التجهيز للدخلة نظرت فى محتواياتها فتيقنت اننى عثرت . ليس على من يرافقنى ويشاركنى عبء الحياة بل على من يشارك الحياة فى عبئها على ! . لكنى قلت ان الانسان دائما يبحث عمن يقوم بخدمته فيعثر دائما على من يقوم هو بخدمته وهذه هى سنة الزواج فى بلادنا .. وذهبت لاقيم « الفرح » وتم كل شىء فى شكل طبيعى مثل أى دخلة فى أى « فرح » . العريس فى القرية يتلقى دعوة من أحد أقاربه المتناثرين فى أنحاء القرية لكى يستحم فى داره ، حيث يوزع على شرفة الشربات وحيث يخرج من الحمام الى الزفة مبــاشرة ، اذ تــكون فرقة المزيكة البلدى بقيادة الريس « صاوى » قد أقامت أمام الدار سامرا مؤقتا تجمع على أصواته كل المحبين فراحوا يرقصون ويلعبون الحطب ، ويخرج العريس مرتديا كامل ثيابه وحليه وعطوره ، وخلفه اثنان أو ثلاثة من أصدقائه الخلص أحدهم يمسك بكرسى صغير ليجلس عليه العريس فى الطريق ، واذ يخرج تنتعش المزيكة فجأة بأنغام راقصة مزغردة مصحوبة بهياج وصياح من المحتفلين . ثم تخرج صوانى الشربات المزركشة وعليهــا الاكواب حول الدورق ، حيث تلحق بها صينية أخرى ودوارق منفردة كثيرة تعود فارغة فى لحظات ، وتتطاير الزغاريد من أسطح الجيران على سبيل التحية العابرة . ثم يبدأ الموكب سيره . عادة يختــــار طريقا يدلف بهم الى شارع داير الناحية لــكى يتاح لكل عائلة فى القرية أن تعبر عن موقفها تجاه صاحب الفرح أو مدى صلتها به . وصاحب الفرح يعرف مقدما عند أى بيت من كل هذه البيوت يقف متأنيا ، والركب على صفين متقابلين والعريس بينهما فى الصدارة ، وأمام الموكب فرقة المزيكة ، والصفان يرددان معا بالتناوب على أنغام المزيكة : « اللهم صلى على محمد يارب صلى عليه وسلم » ، وصوت المزيكة يلعلع بينهما فى ابتهاج . صاحب البيت تخرج طلائعه بصوانى الشربات ، ثم يوسعون لانفسهم مكانا ويتحزمون ويرقصون وحتى يصل العريس الى دار العروسة يكون الليل قد صعد الى المنتصف .

وتكون العروسة قد خرجت من تحت يد الماشطة مجلوة مع مقدم المساء حيث ترتدى فستان الزفاف وتصعد الى كرسي وضع لها فى صالة الدار ، حيث تكون المغنية قد راحت تدق على طبلتها مغنية وسط جمع من أهل العروسة وصويحباتها . واذ يصل الموكب يدخل العريس مخترقا التجمع النسائى الى عروسه مباشرة ليكون فى انتظاره كرسى بجوار العروسة ، يجلس عليه لمدة نصف ساعة أو أكثر ، ثم ينهض متأبطا ذراع عروسه ويمضى بموكب المغنية ودفوفها الى منزله اذ يدخل بعروسه وينفض الحفل .

كونى موظف فى المدينة الكبيرة لا يعطينى حق التعالى على هذه الزفة مهما كانت وجاهة الاسباب . وقد أديت كل الطقوس بكل راحة واطمئنان وبساطة ، ولقيت فى الزفة ما أطربنى وهزنى وجعلنى أوقن اننى بالفعل مقبل على لحظة تاريخية نادرة فى حياتى ، فتهيأت لكى أعطيها كامل نفسى وأعيشها بقـــدر ما اكتشف فى نفسى من صفاء ..

وهكذا ودعتنى المزيكة بالزغاريد واستقبلتنى طبلة المغنية المائجة وأغنياتها المشجعة المستفزة لرجولتى وجيبى أيضا . فلما استويت جالسا بجوار عروسى لم يكن صوت المزمار قد اندلع بعد ولا صوت المغنية قد هدأ ، لكن صوت النكير كان هو الاعلى ، لا يمكن أبدا أن يكون هذا الصوت الجهير المريع من حنجرة طفل فى السابعة من عمره . صـوته قادم من الحجرة الداخلية كأنه ثور يتعرض للذبح عنوة .. كان صياحا ملتاعا مقبضا يتأوه « تعاليلى يا أووختى .. آه .. ه .. ه » وعبثـــا حاولوا تجاهله ، اذ انقلب الى رعد يهز الجدران ويغطى على أى غناء وأى طبل .. وكانت العروس ــ شقيقته تعتصر عينيها دمعا متواصلا وتضغط على أعصابها بكل قوتها فى توتر حتى خيل الى ان شرايين دمها ستنفجر . وعلمت من النسوة الملتمات خلف جلستنا أنهم كانوا قد أعطوا الولد قرصا منوما وحبسوه فى الحجرة الى أن تتم الدخلة ، وأنه قد أفاق واكتشف الخديعة ففزع صائحا هكذا وصـــار يضرب الباب بقبضته .. ففتحوا له . فاندفع يجرى نحو اللمة يضرب كل من يصادفه بالبونية والرجل ، ويشتم بألفاظ قبيحة .. فأفقت بأننى قد صرت أكرهه جدا .. وكان أهله يضحكون لافعاله فى محاولة لتغطية شعورهم بالحرج والحيرة..

ثم اذا به يقفز جالسا على حجر العروس ، ومن توتره وهياجه يتشقلب فتجيء قدمه فى وجهى وأخرى تلوث شياكتى .. فاحتضنته

العروس فى صدرها بقوة ثم وضعت راسها فوق رأسه ثم طلبت كرسيا صغيرا فجئ به فحشرته فيما بيننا قائلة : « اقعد ياخويه » . فجلس يمسح دموعه بكم جلبابه . واستأنفت المغنية غناءها كأن شيئا لم يكن. واستأنفوا الهياج والرقص والغناء لمدة ربع ساعة . ثم نهضت المغنية فنهضنا فاذا بالعروس تمسك بيد أشرف وتنظر نحوى فى غيظ قائلة: « امسك ايد أشرف الثانية » . فامتثلت صاغرا وفعلت ، وشاركنا المغنية فزفتنا وأشرف بين يدينا من منزل العروس الى منزلى ، حيث تعين على أن انفرد بعروسى فى غرفة واحدة وينفض الحفل . والذى حدث ان الحفل قد انفض بالفعل ولكن أشرف لم ينفض ولم يرد الانفضاض . وكان قد دخل معنا حجرة النوم وجلس بجوار أخته فى مواجهتى يشاركنا الاكل من برام « الاتفـــاق » ويبعثر الارز على الارض والفراش بغزارة . ثم شرب الشاى معى ، ودخلت العروس لتبدل ثيابها فدخل وراءها ثم عاد وراءها ممســـكا بطرف قميص نومها ، ثم جلس من جديد فى مواجهتى ، فصرت أتأمل جبهته ووجهه المستطيل الابله الغليظ الشفتين ، وأعض على نواجزى ويكاد يعترينى هياج عصبى حاد ومدمر ، لولا اننى كنت أتماسك فى آخر لحظـة وأحتمل . وقمت فخلعت ثيابى وألقيت بنفسى على السرير متهالكا قرفانا وأنا أقول لعروسى : « تصبحى على خير » ودخلت حماتى على الفور وانقضت عليه ولكنه أطلق جعيره مقدما حتى سحق قلبى من الرجفة والاضطراب ، وصحت فى حماتى بغيظ : « سيبوه محدش يكلمه » ، ثم اعتذرت عن لهجتى قائلا فى هدوء يتشبث بابتسامة : « سيبوه ينام معانا مش مشكلة » . وكأن العروس كانت فى انتظار كلمتى اذ ابتسمت فى سعادة قائلة : « صحيح .. طب خلاص ياماما روحى انت » . وهكذا نام أشرف بينى وبينها فى الفراش فى ليلة الدخلة . وما كدت أضع رأسى على المخدة حتى غرقت فى قرار النوم الى قاعه البعيد .

قالوا انهم جاءوا بالطبل البلدى لكى أصحو ، وصارت « مثلة » فى البلد يوم الصباحية ووقع بصرى أول ما وقع على أشرف وهو على حجر عروسى يأكل الكحك والتبور من أطباق الصباحية فى صورة مقززة . وسلم الجميع على يدى بطرائق ذات معنى واحد هو حسدى على أننى فطسان هكذا . وقـــال بعض الاهل فى احتجاج : « خير يا راجل .. مفيش حد يقابلنا ؟ » . نظرت الى أشرف وقلت : « ألم يكن أشرف فى استقبالكم ؟ » . ففرحت لانهم لم يكتشفوا نبره

الحقد الشديد التي اكتشفتها أنا نفسي في صوتي بعد برهة ..
مكثنا في ضيافة أخي حوالي أسبوعا كان أشرف « خلاله قد تسلط علينا تسلطا دموي المزاج حقا . لعب بأعصابنا كأنها الكرة الشراب بين قدميه ، ما أن نتوهم اننا صرنا متوحدين وما أن تبدأ القنطرة في القيام بيني وبينها حتى يندفع الباب مرة واحدة فيصك الحائط في دوي مفزع ، واذا بأشرف يرتمي على الارض داخلا ، ثم يغلق الباب خلفه ويتجه مباشرة الى حضن أخته التي تتهيأ لاستقباله في الحال ، فأحس بوجهها قد تورد توردة الحقيقي وبصوتها قد نبر نبرته الحقيقية وبمشاعرها قد عبرت التعبير الصحيح عن نفسها ، وهي تحتضنه وتكلله وتهننه وتهدهده وهو سابح بعينيه في شرود حالم مستمع أبله ، ثم انه يسمع صوتا في الشارع أو يتذكر قرشا نساه لدى بائع الفرارير فيندفع خارجا ملقيا في روعنا أنه سيغيب وقتا في البحث عن بائع الفرارير ، اذا بأخته تلقائيا ودون أن تدري تهتف به قائلة : « ما تغيبش يا أشرف أوعك تتوه ماتروحش بعيد » . فيضحك في عبط سمج ، ويمضي ، فتغلق الباب هذه المرة بالترباس ، لكن الزهق يكون قد أصابنا ، فنخدع أنفسنا لبرهة طويلة بالحديث في أشياء عامة ونمعن في استبعاد أي اتصال للمشاعر خوف انقطاعها بعد برهة ، وغيبة أشرف تطول بالفعل حتى يلعب الفأر في عب شقيقته فتفتح الباب وتبعث في طلب السؤال عنه ! .

ويوم عودتي بها الى المدينة كنت قد أيقنت من أن « أشرف » ليس هو الحاجز الوحيد بيني وبين زوجتي ، بل ثمة حواجز أخرى كثيرة ، وكلها حواجز من نوع غريب ، انها حواجز لا تحيط الا بالمناطق التي أرغبها فيها على التحديد لتمنعني من الاقتراب منها : لقد كنت أحتاج منها ـ فحسب ـ هذه الحالة التي تعتريها عندما يكون أخوها أشرف « بين ذراعيها » لقد أحببتها وخطبتها دون تردد لانني ذات يوم بعيد كنت في زيارة للبلدة فرأيت زوجتي هذه تحتضن أخاها هذا ويتورد وجهها كأنه لهب عظيم يتكلم ، وتصب في أذنيه هديلا جميلا يرعش البدن من فرط ما فيه من حنان دافق واحتواء .. ولم أكن أظن أن هذه الميزة وقفا على أخيها أشرف وحده ، وان محاولة انتزاعها منه مسألة محفوفة بالمخاطر . وكان الامر قد تضخم في نظري ، ربما بسبب الاتصال الذي لم يتم بيني وبين أي شيء أو أي أحد ها هنا ، وربما بسبب من شعوري بأنني قد عدت الى هذه

القرية وحيدا بلا رفيق ، وهأنذا بعد رحلة الخطوبة والكدح فى سبيل الدخلة أخرج منها وحيدا كما كنت وان صار لى رفيق أتحمل مسئوليته . مع ذلك كنت أحاول أن أسخر من الموضوع برمته ومن الحياة ، وخشيت أن أصنع من « أشرف » غريما لى فأكون قد صفرت فوق خسران ، فقررت ألا أقيم لاشرف أى وزن فى الامر وان يكون وجوده فى حياتى أمرا معترفا به الى أن تعالجه الايام وتعالجنا فيكبر ونشيخ . ولذلك حينما ذهبت الى السيارة لأركبها عائدا بزوجتى الى المدينة الكبيرة محل عملى فوجئت بأشرف يجلس بجوارها ذليلا من فرط ما بذله من جهد خارق فى البكاء والعويل ، يبدو كاليتيم اللطيم لا صلاح عنده سوى البكاء بصوت نكير . فاعتبرت الامر طبيعيا وجلست بجواره . لكن أم حماتى – وهى عجوز متينة البنيان – جاءت تلف نفسها فى الملس الاسود مهرولة نحو السيارة ، ثم فتحت الباب المجاورة لى وحشرت نفسها بجوارى فحشرت نفسى بدورى فى أشرف الذى بكى وصار يضرب بيديه ورجليه فحملته أخته ونيمته على صدرها ومع ذلك لم أفكر فى استغلال المسافة التى تركها ! .. وقالت العجوز أنها جاءت لتتفرغ للعناية بأشرف والهائه عن أخته قليلا ، فرحبت بها قائلا أهلا وسهلا ..

ثم اننا سافرنا .. وبالطبع لم تستطع العجوز الهاء أشرف أو انتزاعه من حضن أخته فى الليل أو النهار – فأدركت انه لا العجوز ولا أنا ولا أى قوة تستطيع أن تنزعه ، الا اذا انتزع شيء ما فى قلب زوجتى فى صدرها فى كل عروقها يجرى ، الا اذا انتزع من جوفها الكبير هذا الشيء الصغير الذى يشبه قلب الخساية ، وهذا مستحيل . وكانت زوجتى تحس بمدى معاناتى ، وتحس كم انا بعيد عنها وكم هى بعيدة عنى كأننا بعض أقارب نسكن فى شقة واحدة فحسب ولكنها كانت تبدو عاجزة تماما عن فعل ما يرضينى ، وقد أظهرت رغبتها وحاولت أن تعطى نفسها لى بصفاء واهتمام من وراء ظهر أشرف ، الا انها كانت تبدو كعروس محشوة بالقطن الرطب لا أكثر فكانت تبكى حين ترانى مهموما وتتمنى أن تجلب لى السعادة ، لكنها لا تعرف وانا بدورى عاجز عن التعبير عن دواخلى . ولهذا التمست لها الاعذار ولم أكرهها ولكننى أبدا لم أنج من كره أشرف . ويبدو أنها كانت تشعر بشعورى ذاك فتتعمد فضحه قائلة فى كثير من الاحيان . « مش تقول له صباح الخير يا أشرف ؟ » فأعلق على

وجهى ابتسامة لزجة وأغمغم بكلام مبهم . وكانت تضبطنى متلبسا بالنظر فى وجهه بكثير من الغيظ الدفين كأننى أستقبح كل شيء فيه . أنفه الذى يشبه الجزرة ، وجهه المستطيل الشاحب الذى يخلو من التعبير على الدوام كأنه وجه مصمت ، أما ان تهيأ للبكاء أو بكي بالفعل فيا حفيظ ويا سبحان الله على خلقته ، التى تتكرمش فجأة ويتعوج الفم وينفتح كماسورة المجارى بدفق مزعج رهيب ، فتعلق وهى - أى زوجتى - من اشمئناطى قائلة فى ذكاء : «ايه .. مش عاجبك شكل أشرف ! » ، ثم تمصمص بشفتيها فى تعجب وتحسر ، وتضيف بمواء : « مش عاجبك الجمـالات دى كلها والسماسم دى كلها ؟! » . فأسد أذنى تماما عن كل ما قالت وأغلق عينى عن كل ما فعلت ..

والزواج فى محيط أمثالنا شيء يحدث فى العمر مرة واحدة .. وأمثالنا طبعا هم طبقة الموظفين الغلابة من خيول الميرى غير المطهمة. اننى ممنوع بقوة كونية مجهولة من التفكير فى التملص أو فى بناء عش آخر مع طائر أكثر حرية وانطلاقا ، ليس لاننى صرت مكسور الجناح بعدم وجود أى امكانيات مادية تتيح أى شيء ، بل لاننى سوف أظل نصف السنوات القـادمة من عمرى المفترض أسدد فى كمبيالات وشيكات وأقساط ثمن أثاث وخلو رجل وجمعيات وما الى ذلك .

سلمت أمرى لله وفعلت ما كانت توصينى به أمى كلما أرغمتنى على تجرع الدواء ، والدواء دائما مر - خاصة شربة الملح - اذ كانت أمى تأمرنى بعنف قائلة : « غمض عينيك واشرب » . نعم أغمضت عينى وصرت أشرب الترياق اليومى . وكجزء من معالجة المر بالمر فاننى قد أصبحت أنا الآخر مرا علقما ، وصارت المرارة تلذ مذاقى .. فكنا أنا وزوجتى نستغفل أشرف ونلتقى من خلف ظهره خلسة ودون أى استمتاع . وكان ذلك قد خلق فينا لذته الخاصة ، فنشأت فينا قدرة على انهاء اللقاء بسرعة وعلى نحو ما قبل أن ينشق السكون عن هادم اللذات ومفرق الجماعات وهو ربما يكون نائما بجوارنا على نفس السرير ، وتكونت لكل منا حصيلة من الحركات والكلمات يفعلها ويقولها كطقس غير مفهوم ولكنه يرفع اللقاء الى ذروة عاجلة لتهبط متخاذلة الى حفيض عاجل ، وكان الخيال يتضح أنه دائما أحلى من الواقع بما لا يقاس .. ولقد أتيحت لنا بمضى الايام فرص كثيرة نستغفل فيها أشرف ونتلاقى خلسة . حتى بعد أن سافر أشرف الى

بلدته بشهور طويلة فوجئنا بأننا قد أصبنا بعقدة أشرف واننا لا زلنا نتصرف بنفس المشاعر كأنه رقيب قائم فوق ظهرانينا ، وحقيقة الامر اننا كنا قد أمعنا فى استغفال أنفسنا ، فلم نحس بأى فرق بين الزواج والعزوبية . لكنها كانت قد حملت وانتفخ بطنها . وكان ذلك سببا كافيا لاقامة الابتهاج داخل النفس . وقد احتفلنا بذلك قدر الامكان ، واستدنت فى سبيل أن تلد هى فى مستشفى تحفها بالرعاية الواجبة . وتم كل شىء بعون الله على ما يرام ، وجاءت الممرضة وأبلغتنى النبأ التقليدى السعيد قائلة : « مبروك جالك ولد » . فعبرت عن سعادتى ببقشيش سخى ودخلت أجرى الى ابنى الحبيب وأحمله وأقبله . ورفعت أمه الغطاء الرقيق عن وجهه وقدمته لى .. فاذا به .. صورة طبق الاصل من أخيها أشرف بلا زيادة ولا نقصان ! . انقبض قلبى .. وأحسست أننى أكرهه فأحسست برعدة وهزة . ثم أفقت فى الحال وقربته من فمى وقبلته فى شفتيه فشممت رائحتى فيه واجتذبتنى حرارته فصرت أقبله فى كل وجهه ويديه ..

ثم اننى صرت من شهر الى شهر أتأكد من الشبه العميق بين طفلى وبين خاله أشرف الكريه لدى حتى لكأنه صورة منه . وكان يصيبنى الدوار ثم أنسى . ثم بدأت ألاحظ أننى كلما رأيت أشرف شقيق زوجتى قلت له بابتسامة بشوشة : « أهلا .. ازيك يا أشرف » .

---

* ١٩٧٠.

المنحنى الخطر

ألقت بى عربة « الـكافورى » عند كوبرى السماكين وتركتنى أواصل الطريق وحدى فى الظلام .

رغم اننى لا أسافر الى بلدنا كثيرا الا اننى أحمل هم هذه الوصلة كأننى أسكن فيها ، سنين طويلة وأنا أؤجل السفر حتى تحين الفرصة المناسبة فأسافر لاخوتى بكثير من الهدايا ولأمى بكثير من دواعى الفخر والابتهاج . لكن آه من هذه الدنيا ، تحكم على أن أسافر خاوى الوفاض الا من الشوق وفى عز الليل .

ان لم تكن برقيتك صادقة يا أمى فسأعتب عليك عتابا شديدا . ان ما أحدثته فى نفسى لرهيب . تقولين انك تلفظين النفس الاخير ، هكذا ببساطة الا تدرين ما الذى تفعله بى هذه الكلمة ؟ هذا أبسط ما فعلته بى : جرجرتنى على وجهى فى عز الليل فى طريق خطر صرفت فيه ثمن دبلة الزواج ومع ذلك لم أتفاد أخطر وصلة فيه :

استيقظت العفاريت فى رأسى . كلها لناس أعرفهم . كلهم غرقوا فى هذا المصرف أو قذف بهم اليه . أسرعت الخطى . صوت خطواتى يرن فى أذنى . أتخيل أن هناك أقداما تسير خلفى مسرعة . أخشى أن أنظر ورائى . لغط هامس لا معنى له يقبل من بطن الافق . الليل أشباح مجسدة . أعواد الذرة تتمايل فتصدر خرخشة مرعدة . لهاث يقترب . يقترب . هل هو لهاثى أم لهاث أحد غيرى ؟ فجأة وقف أمامى . أكبر وأخطر ذئب فى الناحية اختار هـذا الطريق ليقطعه . ان كان هو نفسه الذى أعرفه منذ طفولتى فلا شك انه ذئب عجوز .

ـ ان قابلك الذئب لا تجر . بل أمضى ثابتا واشخط فيه .

لا أتذكر من قائل هذه الكلمة . أخيرا طاوعتنى قدماى ومضيت خطوة . خطوتين .. ثلاثا .. خمسا .. تماسكت قدماى . هل أجرى اذن ؟ . آه يا ابن الابالسة . تسير بجانبى كأنك صديق . فالأسرع فى سيرى . يسرع هو الآخر . فلأبطىء يبطىء هو الآخر . يتمسح فى .

ـ تصوروا يا رجال . قبل هذا اللقاء الاسود كان الرجل لا يخشى الذئاب ... وبعده أصبح يخاف من ذيل الكلب .

لابد ان قائل هذا الكلام لا يزال يحيا فى البلد . كان مرجعا حقيقيا

فى طبائع الذئاب .. الوغد يتمسح فى بنعومة خطيرة ..

ــ راح الذئاب يحاوروه ويداوروه حتى أفقده عقله .

مصيبة . القرية كلها وقعت فى قبضته ، اما بالمواجهة الشخصية واما بمعايشة الرعب فى كل مكان يذهبون اليه ..

ــ الغريب يا أولادى انه ذئب لئيم ابن حرام . لا يخدشك الا بعد أن يتأكد أنك فقدت القدرة على المقاومة تماما .. الا بعد أن تستسلم له .. ولهذا فالجنون هو النهاية التى منى بها الكثيرون .

هل ترانى سأجن ؟ .. أيها الوغد لن تفلح فى تعتعة عقلى شعرة واحدة . آه لو كان معى سلاح .

يقول ذلك المشهود له بالفهم فى أمور الذئاب ان الذئب يجبن أمام أحقر بندقية غير أن جبنه يتحول الى جنون شرس ، يستفزك حتى تستنفد كل ذخيرتك فى الهواء الطلق ولن تصيبه مطلقا . الطريق أمامى يبدو بلا نهاية . ساقية المعلم عبده هى نقطة الامان الوحيدة فى هذه الوصلة . دائما كنا نشعر بالامان عندما نلفها ربما لانها أول علامة على ان البلدة قد اقتربت وربما لانها أول حدود البلدة . الانفار السارحون لا يعتبرون أنفسهم فى الغربة ما داموا لم يتجاوزوا ساقية المعلم عبده . أما ان تجاوزوها ولو بخطوة واحدة فان لهم الحق فى طلب زيادة الاجور بدل اغتراب .. وتنطلق المواويل الشاكية الحزينة تندد بالغربة ، وبطول الطريق وبعد المزار .

ابعد عنى أيها القدر . ابعد أقول لك . أين ساقية المعلم عبده ؟ ابعد يا حقير . اذا أنا وصلت الى الساقية وأنا بكامل قواى العقلية أكون تقريبا قد نجوت . سأقيم ليلة لاهل الله آه ان نجوت . سأقول لامى ان الذئب قابلنى . سوف تشهق من أعماق صدرها . ويستحيل وجهها الى اصفرار الموت ولن تصدق اننى ما زلت حيا . قلت لك أبعد والا ضربتك ببوز الحذاء فى أسنانك . ستضرب أمى بيدها على صدرها وتقول « دا بس ربنا بيحبنى مارضاش يحرق قلبى عليك » يا ابن اللئام هل تريد اقناعى بأنك صديق : دع ساقى لا تتمسح فى صحبتى . هل تشم رائحة الجورب أم رائحة اللحم البشرى يا ك يا ك . ياكلب يا ابن الكلب رح فى داهيه . رائحة الدخان فى أنفى . الحمد لله أن علبة سجائرى معى . فلاشعل واحدة هكذا .. حقا . الآن فقط اقتنعت أن الذئب يفزع من رؤية النار المشتعلة بدليل انه ارتد مذعورا وتراجع الى الوراء .

لست ادرى كيف علم سيادة المدير أننى أبديت تذمرى من بعض

الاشياء السائدة فى الهيئة . لابد ان الوغد « شوربجى » هو الذى نقل اليه الخبر . هذا الولد الحقير لا ينتظرك حتى تخطىء فى حق أحد لكى يجد ما يبلغه ، انما هو يدفعك الى هذا دفعا . انه موهوب فى استثارة سخطك على كل شيء وسواء جاريته أم لم تجاره فى سخطه فثق انك مدرج ـ بعد اللقاء مباشرة ـ فى كشوف المنقولين ، وتصبح فى نظر المدير ـ دون أن تدرى ـ مشاغبا ساخطا . قال الشوربجى : « كيف حالك هذه الايام » قلت ضائقا « لست على ما يرام » . وفى نفس اليوم قال لى سيادة المدير دون مناسبة « الواضح أنك لست على ما يرام فهل هذا بسبب العمل ؟ » أيها الكلب الحقير هل عدت ثانية ؟ . يبدو أنك ستنتصر على وتفقدنى عقلى . لماذا أتعب والكبريت معى ؟ هه . رح فى داهية . أزمتى الحقيقية هى بساطتى .

لا أستطيع اخفاء مشاعرى الحقيقية . الوغد يصر على مطاردتى . الكبريت . قال لى سيادة المدير فى احدى المرات : « شاهدتك بالامس تسير فى شارع الذى كفر » ولمع فى عينيه بريق أفزعنى بغموضه ، لعله يريد أن يقول لى « اننى أتعقبك » ألوغد يتجرأ شيئا فشيئا ومن الواضح انه استضعفنى .. الكبريت . يلعق بلسانه حذائى . ارجع يا جبان . سأقول لامى أن سيادة المدير هو السبب فى ابعادى عنها . نعم هو السبب فى الواقع أليس يقتر على فى الرزق ويخصم من قوت أولادى بعض أكياس الفاكهة جزاء ذنوب وهمية نسجها خيال المنتفعين . أليس يحجب عنى فرص النمو على كافة المستويات ؟ . سأقول لأمى أيضا انها أخطأت خطأ شديدا حينما نسيت أن تعلمنى فروض الطاعة والولاء وفن الانحناء ، وفن تقبيل الايدى والاحذية .. أية صدفة سعيدة جعلتنى أضع الكبريت فى جيبى .

لو كان العود طويلا بعض الشيء . لم يبق فى العلبة غير بضعة أعواد . يجب الاستعانة بشيء يساعد الاعواد ويطيل عمر النار فى يدى . بس . وجدتها كومة الاوراق فى جيبى ، من المؤكد انها أوراق لا قيمة لها ، الآن فقط أصبح لها قيمة . فلأنتزع واحدة وأبرمها بيدى وأشعلها . نعم هكذا آه . لم يبق سوى عود واحد . الوغد يتلمظ . ألم يعد فى الجيب ورق أى ورق ؟ . من ادرانى ان ساقية المعلم عبده لا تزال موجودة . أليس من المحتمل ان تكون

قد أزيلت خاصة بعد ان انتشرت ماكينات الرى فى البلدة ؟ . لا أذكر أنها كانت بعيدة هكذا . هذه هى ترعة المشروع . آه . احترقت يدى . الترعة هى هى مثلما تركتها لم تتغير لعلها ضاقت بعض الشيء لكن منسوب المياه فيها لم يكن أبدا ضعيفا هكذا .

ـ على فكرة .. يستطيع الذئب أن يطاردك فى كل مكان الا فى المياه .. فهو لا يستطيع الخوض فى الماء مطلقا ..

مياه الترعة قليلة ولكنها مياه على أية حال . ابعد يا وغد يا حقير .. آه . آه . يا .. يا .. يا خلق هوووه .. يا خلق هوووه . مصيبة . لا صوت يرد على سوى صوتى نفسه .. ماذا انتظر . الماء بجانبى والعدو أمامى . رميت نفسى فى قلب الترعة . رحت أمشى خلال الماء فأحدث ذلك ضجيجا هائلا . رجلا بنطلونى مملوءتان بالماء وهـذا يعطـلنى . قدمى تصطدم بكثير من الصخور والطوب والزلط . انك لا تنزل النهر مرتين . ليست هذه هى المياه التى كنت استحم فيها وأنا صغير .. كنت مثل الاطفال ادهن جسدى كله بالطين أيضا ، ثم أقذف نفسي فى الماء وأخرج فى التو نظيف الجسد . لعل طين المدينة العالق بى لا تغسله مياه كل الانهار . ما أصعب دفع القدم . البالطو مشكلة . الذئب الحقير ما زال يمشى على الشاطىء فكرة . فلأصعد الى البر الآخر .

دفعت نفسى نحو البر الآخر . هبطت قـدمى اليمنى فى حفرة عميقة . رقعت على وجهى . وجدتنى جالسا فى قاع الترعة والماء يتسلق كتفى . نزعت نفسى من الحفرة ورحت أتساند على الهواء حتى قذفت ذراعى على البر ونفضت جسدى متسلقا الحافة وكان الذئب قد استدار عائدا الى الخلف يجرى بأقصى سرعة . وقفت وحاولت السير لكن جسدى ثقيل كأننى جوال من الزلط .

خطواتى ثقيلة لها خب ودوى والماء يتساقط منى . شىء ما يخمش الارض خلفى فى زحف سريع لاهث . آه . الوغد يندفع واقفا أمامى وفى تحد يهز ذيله يمنة ويسرة صرخت . لم يهتز . نزعت البالطو وفردته بيد منتفضة . رميته فوقه . قفز فى الهواء ببهلونية غريبة ثم اندفع نحوى يتلمظ . قذفت نفسى فى الماء صارخا .

تدحرجت فى قاع الترعة نائما على ظهرى وشربت طينا . تماسكت حتى اعتدلت واقفا ثم رحت اخب فى الماء ببطء قاتل .. الى أن يطلع الصباح .

يناير ١٩٧٣

روز اليوسف العدد ٢٣/٢٣٥٤ يولية ١٩٧٣

مشهد فى منحدر التخيل



مشهد من منحدر النخيل

برز قرص الشمس من بين سعف النخيل .. شـواشى النخيل تنكفىء عليها السـماء فى الأفق البعيـد .. فيفقد السعف لونه ويصبح رماديا تمتد ألسنته كسيوف حادة تخترق القرص الذهبى أخذت أقترب من النخيل .. وكلما اقتربت منه رأيته يغطس فى الارض بين المقابر الكثيفة التى تقوم فوق ربوة عالية .. رحت أصعد التل الهش .. أتجنب الاشواك الحادة المتناثرة على الارض فى حزم خشنة كالحة ..

مثل أبى قلت : « السلام عليكم »

رايت شواهد المقابر تنحنى وترد السلام فى صمت بليغ . المقابر شوارع ، ومنحنيات ومنعطفات بعضها منتصب فى حيوية وبعضها منكفىء على نفسه . وهنا وهناك مقابر تحاول ان تتطـاول وسط عشرات المقابر العالية اللامعة .. كدت أبتسم لـكنى تذكرت اننى لا أعرف أين تقع مقبرة العائلة .. ثم رأيتنى طفلا . فصبيا . وجاء العيد بحاله وجاءت النساء يحملن قفف « الرحمة » ليوزعنها على مقبرة المرحوم .. أيامها .. نعم كنت أيامها أمر بأربعة شوارع جانبية ثم انحرف الى الخامس على اليسار . خطوة أو خطوتين ثم أجدنى أمام مقبرة العائلة .. كنت أضع عليها علامة معينة . تلك هى شجرة الجميز العتيقة التى ترتفع داخلها . حيث أن المقبرة تشبه الحجرة الكبيرة .

لا أعرف الآن ان كانت المقبرة على اليمين أو على اليسار . انا الآن وسط المقابر تقريبا . هذه الحفرة العريضة اتذكرها . يقولون انها بفعل الذئاب . لقد تذكرت . ان القادم نحو هذه الحفرة من عند طلمبة المياه فى جنينة « العبد شتا » يمكن أن يرى مقبرة العائلة فى مواجهته تماما لكن بعد عدة صفوف . قطرات الندى تلمح فوق أعواد الحلفاء ، وقحوف التين الشوكى . أشعة الشمس تختبىء فى حفر كثيرة . ثعبان مفتول العضلات يستعرض طوله فى أشـعة الشمس . أصابع قدمى تتقلص داخل الحذاء . رحت أمشى فوق مشط القدم والرعب يتمشى فى ساقى . استدرت على الفور ورحت

اجرى . دخلت الشارع الدائرى الممهد . أخذ الشارع الدائرى الممهد يشدنى فى تلقائية ويقودنى . حتى أوقفنى . لا ادرى كيف . أمام مقبرة يشع منها ضوء أحسست به ينفذ الى اعماقى . أمامها رمل طرى قريب العهد بظهر الارض . ها هى ذى المقبرة الحجرة وها هى ذى جميزتها ..

اذن ففى هذا المكان تنام أمى ..

انكفأت فوق المقبرة . انتفضت أمى جالسة . راحت تعدل الطرحة البيضاء حول رأسها ورقبتها ، وعلى شفتيها ابتسامة كبيرة، مغموسة بفرح يشوبه طعم المرارة . قالت وهى تتلقفنى فى صدرها :

ـ آه منك .. يا .. ياذا الـ .. قلب المتحجر .

ألقيت نفسى بجانبها . كان أخى « مرعى » كالعادة . قد حكى لى كل شىء . وهويقابلنى بالركوبة عند محطة السكة الحديد . ولم ينس أن يؤكد لى أنها نامت والحزن يفريها بسبب غيابى الطويل . وضعت رأسى فوق كتفها . ظللت أقبلها حتى تملصت منى وهى تدفعنى عنها محاولة اخفاء فرحتها . قائلة فى لهجة عتاب جاد :

ـ ابعد عنى .. لا انت ابنى .. ولا أعرفك .

اخذت أنظر اليها مبتسما ، أبحث فى عينيها عن شىء ما تعودت ان أراه وحين أراه افقد الثقة فى غضبها منى . حاولت أن تبدو بالفعل غاضبة . لكنها حين بالفت ابتسمت ، فرحت ، أقهقه بصوت عال . فاستردت ابتسامتها وقالت :

ـ يا أخى .. ضع فى عينيك حصوة ملح . اترانا خلفانكم لكى تهجرونا ؟ .. اذا لم تكن تريد الاطمئنان علينا فنحن نريد أن نطمئن عليكم جميعا .

انسالت دموعى . ساءنى أن يحدث ذلك فقد كانت تكره الدموع وكان يفزعها أن ترى الطفل يبكى ان شب على الارض وان بكى فعلامة شؤم تنبىء بأن « الولد » لن يفلح فى حياته . فالدموع ليست تعرف عيون الرجال . لكننى بكيت بحرقة . قالت فى فجيعة « اتبكى أيها الرجل . لقد علمناك ووظفناك وصرت أفنديا محترما . ثم تبكى ؟ لماذا تبكى ؟ .. هه .. لماذا .. قل لى .. » ولكننى لم اقل لها شيئا . فلو حكيت لها عما يبكينى لما انتهيت ولضاع معنى زيارتى ثم لماذا أزيدها حزنا بأشياء ان ذكرتها فربما لن تصدقها . كما ان زيارتى قصيرة وبعد قليل سوف أتركها وأرحل .

قلت لها :
ـ كيف حالك ؟
بسطت كفها فى حجرها وتثاءبت ثم قالت فى بساطة :
ـ نحمده يا ولدى .. كل ما يبتلينا به الله خير وبركة .
قلت لها :
ـ لم أستطع المجىء فى الوقت المناسب .. هناك ظروف قوية منعتنى .
قالت وهى تهز راسها :
ـ اعرف يا ولدى .. كان الله فى عونك واعانك على رزق عيالك .. المهم أن تكونوا جميعا بخير .. انت واخواتك ..
طعم الصبر يندلق حارقا فى صدرى .. قلت وانا أعرف انه لا معنى لسؤالى :
ـ لكن ماذا فعلت فى هذه الازمة ؟
فكت الطرحة البيضاء . وأعادت لفها حول رأسها وعنقها . وسطع فوق جنبيها ضوء خافت :
ـ التمست لكم الاعذار يا ولدى . كان الله فى عونكم .
رغم اننى أعرف الجواب سألتها :
ـ ألم يحضر أحد من اخوتى ؟
تنهدت . وبسطت ذراعيها حواليها كأنها ترينى خلو المكان منهم . ثم قالت :
ـ لابد أن هناك شيئا منعهم . ليس من المعقول يا ولدى ان تمنعوا بمزاجكم .
قلت وانا أتألم ، كأننى أبرر خستى :
ـ لكن ماذا فعلت وحدك ؟
مرة أخرى بسطت كفها فى حجرها . ونظرت الى السماء نظرة خاطفة ثم عادت فأطرقت . وقالت كأنها تحدث نفسها :
ـ ظللت طول اليوم انتظر . كلما دخل الليل افقد الامل فى عودة أحدكم قالوا لى : أريحى نفسك فلن يجىء أحد .. غير أننى أعطيت اذنى لكل خطوة تدب فى الحارة فلم أميز فى الاقدام وقع خطاكم التى أعرفها جيدا من بين مئات الخطوات . كانت بى رغبة جامدة فى رؤيتكم فى تلك الليلة . ولما وافانى الوعد أغمضت عينى . تركت لكم السلام وأسبلتهما بنفسى .. وودعتهم وانصرفت .. لكننى أرسلت

بصيرتى من ورائى لترى كيف سيميل الحال من بعدى .. رأيت أخاك مرعى يلطم خديه ويمزق جلبابه .. كان هو الوحيد الباقى . وكان عليه أن يتلقى اللطم كله وحده . رأيت الحيرة فى أعقابه . على ان الله ستر .. رأيت مرعى يجرى الى الحاج مسعود ويوقع له على كمبيالة بيضاء ثم يأخذ منه بضعة جنيهات . ورأيته يعود الى الدكان لاهثا فيشترى منه الكفن . ثم يجىء لاهثا وقد اعتدلت فوق رأسه طاقيته واتسق فى الحال جلبابه .. وان هى الا ثوان حتى كانت الحاجة « غلوشة » قد غسلتنى وألبستنى ثوبى الاخير . وأنامتنى فى مكان مريح . ثم اقتحم الحجرة أولاد عمك فحملونى ووضعونى فى النعش وساروا به . ونظرت حولى من خلال الكسوة الخضراء فرأيت « المشهد » لا بأس به . وعند المسجد « الغربى » أوقفونى . وأقاموا الصلاة على روحى . ومن حسن الحظ ان أخاك الكبير كان قد أعاد ترميم المقبرة وتعميرها اثر وعكة ألمت به . وهأنت ذا ترانى الآن جالسة فى راحة تامة . فعلام الحزن والبكاء ؟ لا تشغل بالك يا ولدى . فالحى أبقى من الميت ثم اننى بخير بل لم أكن بخير فى حياتى مثلما انا الآن .

كنت قد أرخيت رأسى على صدرها . وأحسست بأصابعها تتخلل شعرى . ويدها تتحسس ظهرى .. ثم راحت ترقينى . وتتثاءب . تطرد أنفاس الحسود من جسدى .. كالعـــادة قمت من جانبها متسللا .. ربما لـكى أنام قليلا . وربما لكى أستمع الى نوادر أخى « مرعى » عن تصرفاته هو وأولاد عمه الفلاحين أثناء قدومهم المدينة فى المرة الفلانية .. أو .. ربما لابحث عن ركوبة تعيدنى الى المدينة قبل حلول المســـاء . ثم اكتشفت ان خدى جامدتان كالعصا . وأخذت أخفى معالم البكاء فيما أجوس بين شوارع المقابر الملتوية . حتى وصلت الى منحدر النخيل . ورأيتنى أهبط فى اندفاع تلقائى .

ديسمبر سنة ١٩٧٣

ماليس لأحد



ماليس لأحد

احاطنى الطبيب بنظرة فاحصة أحسست انه يتجسس بهـا كل جيوبى ولما اكدت له اننى ـ بالفعل ـ خالى الوفاض حتى من اجرة الاتوبيس ابتسم فى اشفاق وقال :

ـ لا حول ولا قوة الا بالله ، اسمع . . .

ـ نعم .

ـ ارى من واجبى ان أساعدك لوجه الله الكريم .

ـ اشكرك .

ـ سأدلك على رجل يأخذ بيدك ويحل لك مشكلتك الكبرى .

ـ أنا فى عرضك ؟

ـ انزل من هنا على ميدان المحطة . حود على اليمين . فى أعلى بيت فى أعلى طابق على ناصية الميدان . ستجد لافتة مكتوب عليها . الهيئة العامة للشئون الخاصة « جميل » .

ـ جميل .

ـ ادخلها دون أن تهيب . قد تكون دخلتها من قبل ولكن لابد انك كنت متهيبا .

ـ اذكر اننى اتهيب وهذا دليل على اننى دخلتها بالفعل :

ـ ولذلك فشلت .

ـ نعم ـ الفشل دليل آخر يثبت اننى دخلتها من قبل .

ـ لا يهم . ادخلها من جديد . والجديد هذه المرة انك لا تتهيب .

ـ وعندما ادخل ؟ . . اقصد . . عندما لا أتهيب .

ـ اسأل عن مديرها انه صديقى جدا قل له انك من طرفى .

ـ نعم . .

ـ . . لا تكلف نفسك مشقة سرد الحكاية لانه بالضرورة سوف يعرفهـــا فمجرد قدومك اليه يحمل مضمون الزيارة . وثق انك ستحصل على نتيجة مهولة للغاية .

ـ جميل . .ما اسم مديرها ؟

مال على أذنى وهمس :

ـ اسمه فلان الفلانى .

داعبتنى الرغبة فى ممارسة تجربة « عدم التهيب » ومن ثم السعى

الى مقابلة فلان الفلانى هذا . استدرت عائدا الى الطبيب من جديد وسألته :

ـ هل أنت متأكد ان عدم التهيب سيحل مشكلتى ؟

لم يرد رغم انه لم يكن مشـــغولا بشىء ذى بال .. أعدت عليه السؤال :

ـ تقول سيادتك وان فلان الفلانى هـذا يستطيع حل مشكلتى الخطيرة ؟

فمال براسه مكملا .

ـ بشرط الا تتهيب .

ـ لكن هل فلان الفلانى هو المسئول حقا .

رفع رأسه عن الجريدة ينظر الى باستنكار .. ثم اضاف :

ـ وجودى فى هذه العيادة . ضمان استمرار العمل فيها نجاحى كطبيب .

قدومك الى هنـــا وحتى علاجك أيضا . لا يمكن أن ينجح دون ارادته .

قررت بينى وبين نفسى ان اذهب الى فـلان الفـلانى ، وقررت ايضا .. الا أتهيب .

استعدت هذا اللقــاء عشرات المرات وناقشته بينى وبين نفسى مئات الليالى بصحبة الارق ضيفى المسائى المثابر . مأساتى اننى أعرف . فثمة ـ فى نظرى ـ قانون معقد يطبق على الوجود فى قبضة حديدية . أليس من المحتمل أن يكون فلان الفلانى مدير الهيئة العامة للشئون الخاصة لديه تفاسير لكثير من الاسرار الغامضة التى تحفل بها الحياة فى نظرى ؟ بالضرورة عنده هكذا أكد لى الطبيب وليس له بالطبع مصلحة فى خداعى يجب أن أذهب من أجل ان أعرف فقط .. فبوسعه أن يحل أعقد مشاكلك وأعظمها شأنا لمجرد انه يحيطك معرفة ببعض الاسرار .

ـ نعم . هذا هو العلاج الناجح لاشد الامراض سرية .

صارت مبانى حينا الريفى البعيد تتسلخ عنى متقهقرة فى بطء شديد ، وحينما صافحت قدمى طريق الاسفلت الممتد الى محطـة الاتوبيس كنت ما أزال مترددا فى الذهاب الى فلان الفلانى بل والى المدينة عموما ولما رأيت على البعد غابة هائلة من البشر واقفة فى انتظار الاتوبيس أحلو البيت فى نظرى وتضاءلت مشكلتى الكبرى

بعض الشيء .

مع ذلك أسير وحافظة أوراقي تهتز في يدى بلا مبالاة . عربة فارغة ذات أجنحة تعمد الى معاكستى . صداقتى لم تصل بعد الى هذا المستوى الفخم من المعاكسات فمن هذا يا ترى ؟ كل الحقد الذى فى أعماقى يتجمع فى بصقة أود الآن أن أقذفها فى وجه الفخامة الموجودة فى دنيانا بكاملها . توقفت العـــربة . توقفت البصقة على لسانى انفتح الباب وأطل منه وجه يبدو انه يعرفنى ويبدو ان شكله ليس غريبا على لكن من يكون بالضبط فهذا ما يبدو مستحيلا تذكره الآن . قال الوجه فى لهجة ودية أخافتنى ، خاصة وانها مصحوبة ببساطة لا تقبل الجدل .

ــ تفضل يا كابتن :

ثم أنزاح الى الداخل موسعا مكانا بجانبه ترددت كثيرا ما الذى يجب ان أفعله بالضبط ؟ لابد من العثور على مبرزات سريعة ارفض بها هذه الدعوة المفاجئة رفضا مهذبا مثل عرضها .

امتدت يد الرجل وسلمت علي بحرارة أدهشتنى كثيرا وشدتنى الى الداخل . لم أدر الا وانا غارق هكذا فى هذا الكرسى المريح .

قال الرجل للسائق الذى تنبهت اليه فجأة وتصورته ــ لابد ــ موظفا درجة رابعة مثلا .

ــ حود يا أسطى .

ثم مال على بينما العربة تميل أثناء تحويدها .

ــ أظن سعادتك ذاهبا الى الهيئة العامة .

تفرست فى ملامحه بتمعن مذهول لمع فى عينيه بريق سريع اقنعنى انه يعرف كل التفاصيل السرية الدقيقة لحياتى كلها . الجلوس فى العربة يضايقنى . سحب الرجل علبة سجائره الجلدية وقدمهـا نحـــوى : الواضح انك اقتنعت بضرورة الذهاب اليه . رفضت السيجارة لكننى لم أتمكن من رفض تدخله السافر فى خصوصياتى دون أدنى معرفة مسبقة أو مراعاة لحرمة الاسرار الخاصة :

ــ تقصد من ؟

ــ فلان الفلانى .

رغم ضيقى الشديد بهذه الظروف الخرقاء التى وضعت هــذا الشخص فى طريقى ، بدأت أتعشم خيرا ، أتعشم خيرا فى بقعة ضوء مجهولة تبرق بعيــــدا جدا وقد ينحسر عنها غموض هذا الموقف

فتضيف شيئا جديدا الى معـــلوماتى ، يجب اذن أن أقف موقفا وســــــطا ، لا أجزم بشىء قلت كأننى أفاجأ بهذا الاسم لاول مرة :
ــ حضرتك تعرف فلان الفلانى هذا ؟

ضحك الرجل كما ضحك السائق أيضا ضحكة موحدة فى دفعــة واحدة وذات مضمون واحد فهمت منه اننى ساذج وغبى استشعرت نوعا من الحرج عدت أسأل :

ــ أقصد الحضرتك صلة به ثم لا أدرى لماذا استدركت مستطردا فى ارتباك خائب .

ــ لابد أن بينكما صلة وثيقة .. على ما يبدو . وضحكت ضحكة خافتة لا معنى لهــا ، نظر الى الرجل نظرته الى طفل ماكر مكابر . سقطت فى قاع بطنى كركبة من خشية غامضـــــة أحاول الانشغال بأشياء اعرف مقدما انها تافهة . نظرت الى الطريق وفتحت الحافظة ثم استخرجت المفكرة وفتحتها أيضا ثم أعدتها ثم أغلقت الحافظة من جديد .. تكت الولاعة الرونسون فى أذنى فأيقظتنى الى الرجل الذى استأنف النظر الى لكن فى اشفاق هذه المرة . غلف وجهى بسحب الدخان وقال فى بساطة :

ــ اتهدف الى النقود أما العلاج .

يا خبر اسود ! العلاج ؟ انه يتحدث عن العلاج .. اتراه يعرف أيضا اننى اننى .. أتراه يعرف الحقيقة كاملة وبكل حذافيرها . لابد اذن انه ينام معى فى فراش واحد . ما أسهل الانتحار وما افظع المحاولة . هذا شىء بشع وقاتل . اننى لا يمكن أن أطيق هذا العرى . لابد كذلك من مغادرة الحى كله . كيف يحدث هذا وأنا لم أغادر كهفى الا فى لحظات قليلة جدا وكيف يتسنى لهذا الرجل ان يتسرب هكذا الى ما تحت الجلد .

زجاج نظارتى يسبح فى كتل ضبابية . خيوط العرق تسيل فوق ظهرى كشلالات هادرة تفيض على جبهتى وتلمع فوق مسام يدى . أكاد أختنق ، فتحت زجاج العربة ، اندفع الهواء يصفق ويرعد ،امتدت يد الرجل خلف ظهرى وأغلقت الزجاج ثم علق بأن « هذا » شىء خطير بالنسبة لصحتى ويأتى حينما أتعرض للرياح يجب أن أغلق النوافذ جيدا خاصة اذا كنت مشوه البدن من الداخل ثم أضاف بأنه نظرا لسخونة الضيق الذى أنا فيه لا بأس من فتح برزخ ضيق يسمح بالتنفس ولا يكون سببا لاشتداد العواصف .

وافقته بهزة من رأسي .. قال بعد هنيهة :
ـ أين تريد النزول .
تحيرت انسدت كل الطرق فى ذهنى . وجهتى الاساسية صارت فى نظرى مكشوفة ولا أدرى لماذا أود التمويه وابعاد النظر عنها . اى مكان اذن ترانى أنزل فيه سألته :
ـ طريق حضرتك فى أى اتجاه ؟
ـ لا شأن لك بطريقى .. قل لى فقط أين تريد النزول وأنا تحت أمرك .
ـ أشكرك لا داعى للتعب لكن لا بأس من أن تنزلنى عند أقرب مكان ستحود منه . حول بصره عني بلا اهتمام . ارتفع صوت موتور العربة . عاد ونظر الى فقلت على الفور مع ابتسامة مرتبكة : اهلا وسهلا .
ـ فرصة سعيدة : أى خدمة .
ـ شكرا ! ..
وعزم على بسيجارة قبلنها . سارعت باشعال الكبريت وقربته منه متودداً : لكن كيف عرفت سيادتك اننى ذاهب لمقابلة فلان الفلانى .
قلتها كأنى أضرب أحد الاصدقاء الاعزاء على كتفه بحب قائلا له « آه يا عفريت » الا انه سحب الجرائد وراح يتصفحها . أحسست بشىء كالمهانة . أعدت عليه السؤال مرة أخرى بشكل جاد هذه المرة محاولا الايحاء اليه بأننى أستطيع بالفعل مقابلة هذا الفلان الفلانى ببساطة لو ان مقابلته تعنينى فى شىء . ثم أضفت .
ـ شىء غريب حقا انك تعرف كل من يستطيعون مقابلته . فعلق بذكاء وهو ما زال منشغلا بالجرائد تقصد كل من يحاولون مقابلته جف ريقى . استتفهت نفسى . أحسست بتعاسة لا حد لها خيل الي اننى أتضاءل وأتلاشى ـ كل شىء يهتف فى نظرى يتمايل فوق الارض .
ـ لكنك لم تقل لى .. سيادتك تبغى نقود ام علاجا ؟
قاطعته بحدة تعدت حدود الصفاقة بكثير من حركات الاستنكار والنظرات الموحية بالاحتقار وبلهجة مليئة بالعنف والكبرياء :
ـ أى علاج وأى نقود يا هذا : من أين تأتى بهذا الكلام :
ـ أى كلام ؟
يجب أن أبالغ فى اهانته :

ـ قل لى يا هذا . الا تلاحظ انك بجرأة تحسد عليها تقتحم على أسوارى ؟

ـ ولماذا تضع نفسك بين أسوار ؟!

سؤال وجيه فى الواقع ولكن كل انسان له حدود سرية معينة لا يحب أن يتخطاها الآخرون مهما كان صاحبها مفتوحا على الآخرين.

قلت هذا للرجل وأضفت :

ـ ثم ان هذه مسائل خاصة ولا أعتقد أنها تهمك لحد الالحاح .

ـ معك حق .. عموما أنت حر .

ارتفع صوت الموتور دفعة واحدة . زيقت الفرامل بحدة كأنهـا تسلخ جلد الارض كدنا ننكفىء على وجوهنا . نظر السـائق الى العربة التى كادت تصطدم به وبصق فى اتجاهها . اندفع من جديد.

قال بابتسامته الدبلوماسية :

ـ أما زلت تجهل مكان نزولك ؟ ..

قاطعته بسرعة :

ـ أنا ذاهب الى مكان ما غير الذى فى ذهنك .

أشار للسائق فتوقفت العربة . صافحته وهممت بالنزول . لم استطع منع نفسى من السؤال :

ـ لكن بصراحة ما حكاية العلاج هذه ؟

ـ أى علاج ؟ ..

ـ علاجى ـ أقصد كيف علمت أننى فى حاجة الى علاج !؟ ..

قال بابتسامته الدبلوماسية :

ـ هدفك اذن هو العلاج .

صرخت ضائقا :

ـ ليس هدفى لكن أقصد كيف توهمت اننى ..

ـ لانك ذاهب الى مقابلته ! ..

ـ ما العلاقة بين فلان الفلانى وبين العلاج ..

ـ الذاهب الى فلان الفلانى لا يكون الا بهدف من اثنين العلاج أو المال .

زار الشارع فجأة بأصوات كلاكسات أخذت تنبح بلا هوادة قال الرجل وهو يتأهب لاغلاق العربة :

ـ الله معك على كل حال .

لم يمنعنى الزحام من السؤال :

ـ أليس من الجائز أن تكون هناك مشكلة أخطر ؟

ـ ليس هناك أخطر من مصيبتى المرض والافلاس .
ـ آه .. لكن كيف علمت أو توهمت اننى أنوى الذهاب الى ..
لكنه أغلق الباب بعنف ومال برأسه مودعا اياى ـ أخذت أصوات الكلاكسات تطاردنى من رصيف الى رصيف كالكلاب المسعورة . مع ذلك يراودنى احساس بالارتياح . اذن فكلام الطبيب معى صحيح .. وفلان الفلانى هذا يعتبر ملاذا خطيرا لابد من مقابلته . فلأبحث أولا عن أتوبيس يوصلنى الى ميدان المحطة .

***

ـ من فضلك يا سيد ألا تعرف الهيئة العامة للشئون الخاصة .
ـ هيئة ماذا ؟ ..
ـ الهيئة العامة .. للشئون الخاصة .
ومط شفتيه ورقبته بل وهز كتفيه ايضا .
ـ ايه . .الم تسمع بها من قبل ؟
ـ الحقيقة لم أسمع ! ..
ـ عجيب .. اذن الا تعرف فلان الفلانى ؟ ..
ـ اعرفه طبعا . أهناك أحد لا يعرف فلان الفلانى !؟ ..
ـ أين مكانه اذن ؟ ..
ـ آ . .
وهرش رأسه ثم تهيأ للوصف : شوف يا سيدى ..
ثم عاد وخبط جبهته متذاكرا ثم ..
ـ الافضل أن تسأل عسكرى المرور هذا !! ..
شكرته ومضيت . ارتفع فى ذهنى خاطر : كيف سأقابله هكذا دون ترتيب للموضـــوع ؟ ينبغى أن أجلس قليلا مع نفسى لادرس كيف أعرض موضوعى . نعم أهم ما فى الموضـــوع ان أجيد عرضه والا اصبحت زيارتى غير ذات موضوع . يقول الطبيب انه لا داعى للشرح لان مجرد قدومى اليه يحمل مضمون الزيارة ويقول أيضا اننى يجب الا أتهيب . الواجب اذن أن يكون التفكير منحصرا فى كيفية عــدم التهيب ، الغريب انه أكد لى ان عنوانها فى هذا المكان .. والعمارة التى وصفها ليست موجودة ها هنا ، على أى حال لابد انها تائهة . وسط هذا الزحام القاتل لابد أيضا ان عسكرى المرور يعرف مكانها الحقيقى .
ـ صباح الخير يا شاويش .

أغلق الطريق على الراجلين وفتحه للعربات :
ـ أى خدمة ..
ـ حضرتك تعرف الهيئة العامة للشئون الخاصة ؟ .
ـ طبعا .. أهناك احد لا يعرفها ؟! ..
ـ دلنى على مكانها أرجوك ..
ـ ياه أدلك بيننا وبينها سفر طويل ؟ ..
ـ قالوا لى انها هنا فى هذا الميدان !
ـ كاذبون انها .. شوف ياسيدى اركب هذا الاتوبيس الواقف على الرصيف الرابع وقل للكمسارى ينزلك عندها .
ـ امتأكد انت انها ..
ـ نعم وأوصيك الا تقلق من طول المسافة ! ..
ـ أهى بعيدة جدا ؟ ..
ـ عليك بالصبر اذا كنت تريد الوصول .. ربنا معك بالسلامة .
مضيت وثمة شك فى كلام عسكرى المرور يتمشى فى خطوات . لا أمل فى وجودها بهذا الميدان اذن فلا مفر من تصديق العسكرى .

كتل من اللحم البشرى تتشعلق فى الهواء . بعد عنـاء شديد تمكنت من الوقوف هكذا بقدم واحدة على درجة السلم الثانية وفقد قميصى ثلاثة أزرار . الكتل البشرية تهدر فى أذنى تذغدنى والارجل والمناكب والرواوس والافقية والسباب تهيب بى أن ادخل . أنا أبحث عن أنفاس ، تلوى الاتوبيس يمينا ويسارا وحود عدة مرات ثم استوى فى شارع طويل ومضى يئن ويتوجع بدأ الركاب فيما يبدو يتواءمون مع الوضع وراحت أرواح تلفظ نفسها من الصدور على مهل . صرخ المحصل فى الواقفين مطالبا اياهم ان يوسعوا له مع أنه يغوص بينهم ويتسلق الكراسى عبر رءوسهم حتى لا يفلت منه ثمن تذكرة . تذمر بعضهم وصرخ فيهم لاعنا اباءهم جميعا (واللى مش عجبه ينزل ياخد تاكسى) . أريد أن أسأل أحدا فلا أتمكن ، أحدث مرور المحصل موجة انتهازية قلبت الاوضاع واستبدلت خلالها الاماكن وارتفعت الصرخات من جديد . توقف الاوتوبيس عند محطة . اندفع خلفه قطيع أعنى من البشر تتشعبط البعض فى البعض فهروا جميعا الى الارض ولم يحفل بهم احد . حدثت موجة اخرى داخل العربة . رفعتنى الى الدرجة العليا مضغوطا بين الاجساد ولا أثر للارض تحتى ثم مزقت كم قميصى فانكشف لحمى بصورة مقززة . ربت كتفى

الواقف أمامي .

ـ يا عم : يا عم :

انتفض الكتف بفزع ، كاد يعض يدى .

قال بغلظة :

ـ اسكت .

ضحك البعض وعلق آخرين :

ـ العبا سويا .

ضحكت بدورى منافقا الذى علق ثم سألته :

ـ من فضلك يا أخى . أتمر هذه العربة بالهيئة العامة للتـ ..

ـ اسأل الكمسارى .

ـ يا كمسارى .

رد من آخر العربة بلهجة عدوانية :

ـ نعم يا زبون .

ـ أتمر هذه العربة بالهيئة العامة .

ـ لا أعرف !

ـ قالوا لى انك تعرف !

ـ قلت لك لا أعرف . فدعك منى أرجوك !

اكاد أبكى تلفت حولى فى يأس :

ـ أيعرف أحدكم مكان الهيئة العامة يا أسيادنا ؟

تناثرت التعليقات والتساؤلات هنا وهناك :

ـ هم قالو لك اين ؟

ـ فى أى شارع ؟

ـ هذا الاسم ليس غريبا على !

ـ انها جنب وزارة المعاشات .

ـ لا : انها على شاطىء النيل : فى ماسبيرو !

ـ أتعرف أين هى بالضبط : انها عند البرج ؟

ـ لا يا جماعة انها فى حدائق القبة !

ـ لقد نقلوها الى عابدين من زمان !

ـ من قبل كانت فى عابدين !

ـ آه .. عرفتها عرفتها .. شوف يا أخ انت تنزل من هنا تركب اى حاجة توصلك مصر الجديدة وهناك تسأل أنا متأكد انها هناك .

ـ لكن عند أى محطة وفى أى شارع وماذا يعملون فيهـــا ولماذا يقصدونها ..

ـ لا أدرى !

ـ على فكرة لى صديق كان فيها بالامس وقال انه انتخب عضوا بها ! ..

سمعت صوتا مبحوحا مختنقا بالبكاء أغلب الظن انه صوتى :

ـ من فضلك يا كمسارى باشا . هل أغضبك فى شيء ؟ . اننى اسأل سؤالا حسنا فلماذا لا تجيبنى أليس هذا واجبنا عليك ؟

ـ يا أفندى يا محترم . لم يعد ينقصنى سوى اصطحاب الركاب الى دورة المياه !

ـ يا سيدى كلمنى مثلما أكلمك .

ـ ماذا تريد سيادتك منى بالضبط ؟

ـ اتمر هذه العربة بلا ..

ـ أنا لا أعرف أكثر من أن الخط يبدأ بمحطة كذا وينتهى بمحطة كذا ، أكثر من هذا لا أعرف !

ـ يعنى الهيئة العامة ...

ـ ديك الهيئة العامة .. وسننينها السودة .. مليون بنى آدم سألنى اليوم عنها .

ـ سألوك بالتحديد عن الهيئة العامة ؟! ..

ـ سألونى عن (الزفتة) العامة للبلاوى الخاصة .

ثم شوح فى وجهى بالعهدة :

ـ لا أعرفها قسما برحمة أمى لو رجعت بيتى الآن فقد لا أعرفك !

ارتفعت الضحكات والتعليقات ثانية . لم يعد أحد يتذكر شيئا .

ـ الواحد ينسى ماذا أكل فى الصباح !

ـ هذا اذا أكل أصلا !

ـ الناس هذ الايام يسألون عن هذه الهيئة كثيرا .. لماذا ؟

ـ انهم يسألون فقط . لكنهم لم يذهبوا اليها .

ـ ربما ذهبوا ؟

ـ ربما لم يذهبوا !

ـ لو شافوها لما ذهبوا اليها !

ـ لو ذهبوا اليها لما سألوا عنها !

ـ أتراهم يسألون عنها لكى لا يذهبوا اليها ؟!

ـ ربما ليذهبوا !

ـ لماذا يذهبون ؟
ـ أيعرف أحد ؟ انه ملك نظمه صاحبه ؟!
ـ أؤكد لكم أن صاحبه لم يعد يعرف عنه شيئا .
ـ ها ها ها .. يا ... لكن .
ـ لكن قل لى يا أخ . أمن الضرورى هذه الهيئة بالذات ؟
ـ لابد أن الكمسارى يعرف .
ـ دعوا الكمسارى فى حاله .. ما انا قلت لكم .
ـ اسمع يا كمسارى انزلوه فى أى هيئة وارح نفسك .
ـ على رأيك من هيئة لهيئة لا فرق يذكر ..
ـ من هيئة لهيئة يا قلبى لا تحزن .
ـ ها ها ها.. يا .
ـ لكن يا كمسارى كيف تكون رجلا مكلفا ثم لا تعرف الهيئة !؟
ـ لا تؤاخذه يا سيدنا .. اعتبروه راسبا فى كشف الهيئة !
ـ ها ها ها ... يا ...
ـ اخرس يا فندى يا وقح انت وهو .
ـ هش . زمر وانت ساكت .
ـ أو اتكلم وانت ساكت !

زمر الكمسارى بصوت عصبى حاسم . توقف الاتوبيس .. نزل السائق وهبد الباب خلفه .

استدار وفتح غطاء الماتور . عكرش فى العقدة قليلا ثم عاد فأغلق الغطاء ثم ترك العربة وجلس على الرصيف وأشعل سيجارة وبعد أن نفس دخانها فى هدوء ولذة قال ببساطة :

ـ العربة لن تقوم يا افندية سوف تذهب الى الجراج !

تبادلت الاجساد المنضغطة نظرات لا معنى لها . سيطر على الجميع نوع من التمرد الصـــبيانى .. ظلوا هكذا برهة قليلة .. صرخ السائق :

ـ قلنا ان العربة معطلة !

عادت الاجساد المنضغطة تتبادل النظـر بلا معنى . فجأة انقلب الوضع . اخذوا يتهربون من نظرات بعضهم .. ربما لان النظـرات كانت قد بدأت يكون لها معنى . شىء غاية فى الغرابة .. حينما تبدأ العيون تحمل معنى تتهرب النظرات وتتغافل . ذلك ان ثمة تساؤلات أيضا عما يجب أن يحدث بزغت فى النظرات . للمحات

خاطفة راح الكل يهرب من المسـئولية تاركا لغيره مهمة البدء والبت فى هذا الشأن ، شعور عام بانعدام الشعور كذلك راح يهبط على الجباة يخيم على الاقفية يبرر كثيرا من التصرفات الشاذة ، ويصب فى كثيرا من الحقد على هؤلاء الذين تشبثوا بمقاعدهم فى استبسال رخيص .

صرخ السائق من جديد وهو يصفع العربة بكف مغيظه :

ـ يا بنى آدم انت وهو قلنا ان العربة لن توصلكم ؟

حدثت موجة خفيفة من الحركة بدأ الاقتناع بعدم قيام العربة يوشك أن يصير واقعا محققا . برطم الجالسون فى درجة أولى بكلمات مضغوطة لا تحتج ولا تتذمر بقدر ما تشير الى أهميتهم فى الهيئة الاجتماعية .

وانسحب الواقفون فى درجة ثانية من لسـانهم ثم شتموا الكمسارى . تلفت الجالسون فى درجة أولى وتهربت عيـونهم من مقابلة الذين شتموا كأنهم يتبرءون من الشاتمين ويرفضون الانتماء اليهم .. حفاظا على مكانتهم لدى الكمسارى كنوع من التفضل على بقية الركاب اذ هم يحتملون مائة فى المائة ان الكمسارى احتراما لهم فقط وتقديرا لوقارهم ـ سيأمر بتسيير العربة ، وسيكتفى بالهوهوه عددا من المحطات فى وجه الصاعدين والهابطين والمستغربين حتى نهاية الخط أما الجالسون فى درجة ثانية فراحوا يهددون بكلمات يتوارى فيها التهديد خلف جبن الترجى .. لكن الكمسارى حسم الامر بأن شرح لهم قائلا :

ـ انتم أحرار .. الى الجراج يا اسطى !

ثم حشر العهدة فى جيبه ـ وتبعه السائق فأدار العربة ثم مال واستدار ليحود عائدا الى الجراج . وهنا هب الجميع واقفين وبدأت النظرات تتلاقى بلا حرج . وبدأ وجهاء الدرجة الاولى يتبادلون التعليقات مع بسطاء الدرجة الثانية . وبدأ الجميع يقولون كلمة تكاد تكون واحده تتناثر الى شتائم غليظة . وليس مهما أننا بدأنا نتآلف ونندمج ، انما المهم اننا رجعنا نتساقط من العربة كقطع الحجارة فى اندفاعها .. راحت العربة تقذفنـا بالعشرات وكان فى مؤخرة العربة ماسورة صدأة أخذت تنفث فى الهواء دخانا عادما لكنه شديد السواد .

يوليو سنة ١٩٦٤

الأفـــول



الأفول

دفعت اللحاف وقفزت عن السرير فزعا أجرى بداخل الشقة حيث تبين لى وجه زوجتى الصارخة وهى تنهال عليه لطما وتملأ الدنيا ولولة وحشرجة بكاء .. وكان باب البوفيه فى الصالة ، الذى نستخدمه فى تخزين أشيائها الثمينة .. مكسورا .. كذلك شباك الصالة المطل على الشارع العمومى كان هو الآخر مكسورا بطريقة فنية . مع ذلك قلت : « ما بك يا ولية !؟ » . فقالت : « ضاع كل شقاء عمرنا راح .. مستقبل الاولاد ضاع ! » . ثم وجهت كلامها نحو الاولاد المذهولين صائحة بكل عزم : « ضـــاع مستقبلكم يا أولاد التعاسة .. أبناء التعاسة والتعساء لابد أن يظلوا هم أيضا تعساء فيا للحكمة السوداء » . ثم تبين لى ــ بكل أنفاسى اللاهثة ــ ان مجهولا كسر باب الشباك وكسر باب البوفيه فيما نحن نيام فى حلم سعيد ، وسرق مظروفا به كل حصاد عمرنا ، المبلغ المدخر الذى سحبناه من البنك صباح اليوم لندفعه غدا ثمنا لشقة نسكنها ..

هبطت جالسا فوق الارض ممسكا دماغى بيدى قبل أن ينفجر .. وطوحت الرياح بدماغى فلم تتوقف خواطرى الا عند واحد بعينه : ابن صاحب البيت الذى نستأجر فيه ــ مؤقتا ــ شقة من غرفتين وصالة غير صالحة للسكنى الا فى ظروف كظروفنا وبلد كبلدنا وعصر كعصرنا ، ويكفى أن مياه المجارى تشاركنا سكناها وتتحدى كل قدرتنا على التنظيف والمقاومة . كارثة . فابن صاحب البيت ولد صايع هارب من عشرات الاحكام والتهم ، لا يظهر الا كل بضع سنوات ولا يختفى الا بعد ضربة قاضية يقصم بها ظهر واحد من أهله أو من الجيران ، ويقولون أنه يظهر ويختفى فى معظم الجرائم والسرقات التى تحدث فى هذه المنطقة التى نسكنها ، وهى منطقة تنسلت من بطن زحام قاتل وتطل على المدى الفسيح اللانهائى ، وحواليها بعض العزب والبيوت الدور الواحد المنكفأة على نفسها ..

لطمت وجهى أنا الآخر كالنساء . قلت : « كيف تم هذا ونحن نيام ؟ » قالت زوجتى وهى أتعس خلق الله طرا : « كدت أمسك به

لـكنه دفعنى بعنف فكدت أنكسر وقفز هو من الشباك » . قلت : « متى ؟ » . قالت : « زمانه الآن يجرى فى الطريق » . قلت لها : « أهو ابن صاحب البيت ؟ » . قالت : « لا لقد لمحت وجهه ، ليس هو بالمرة ، يخيل الى انى رايته من قبل ! » . هنـــا صاح طفلى الصغير « هشام » قائلا : « أنا اعرفه يا بابا » . قلنـــا جميعا : « تعرفه يا هشام ؟ » . قال رافعا حاجبيه الكثيفين : « نعم اعرفه يا بابا .. رأيته وهو يخطو نحو البوفيه » صاحت زوجتى : « أهو يسكن فى حينا يا هشام ؟ » قال هشام : « نعم » وهز رأسه . قلت: « اتعرفه وتعرف بيته ؟ » قال بهزة رأس : « نعم » .

ولم يكن للابتسام مجال فاعتقلناه وان حق لحظتها .. فهشام لا يبلغ من العمر سوى أربع سنوات ، صحيح انه مشدود الحيل باسم الله ما شاء الله وشقى ولمض ويفعل حركات العجائز ، الا أننـــا لا يجب أن نأخذ بكلامه . لكن أمه نظرت اليه والى بلهفة الغريق يتعلق بقشة . هب هشام واقفا يشوح بذراعيه الصغيرين ويلوح بأصابع دقيقة لطيفة منفزة ، يشرح لنا مكانا ها هنـــا عند الفحت الجديد . ولم نكن نفهم من وصفه شيئا ، لكنه كرجل كبير شدنى صائحا بسرسعة حبيبه : « تعـــال أوريه لك » . نظرت لى زوجتى فى ضراعة . قلت فى نفسى : لم لا ؟ خذوا فألكم من عيالكم ! من يدرى فلربما يصدق هشام ! . ثم أننى بحثت عن المسدس غير المرخص الذى احتفظ به لمثل هذه الحالة فلم أجده ، اذا كان هو الآخر مدخرا مع النقود فى درج البوفيـــه فسرقه اللص من بين ما سرق . فقالت زوجتى : « بركة ، لعـــله خيرا » ثم اننى خرجت بجلباب النوم والشبشب الزنوبة وهشام يسحبنى من ذيل الجلباب .

شعرت انه يمضى بى الى اتجـاه معلوم ويدخل فى حارة معينة ليخرج عند ناصية معينة فيستدير الى حارة يقصدها ، حتى لقـد ابتهجت رغم المحنـــة ، وعجبت كيف أن طفلى هشام وهو بعد لم يتجاوز الرابعة يعرف التجوال فى كل هذه الحوارى بكل هـذه الخبرة والثقة . ثم قلت لنفسى انه ابن الشقاء ، لقد ولدته أمه وأنا فى الغربة فى بلاد العرب أربع سنوات قضيتها على جنب واحد لم انم دقيقة اذ كلمـا اغمضت عينى رأيت أولادى فى مهب الريح لا مسكن ولا مهـــد ولا سند فى مدينة مفترسة لا ترحم ولا تدع رحمة السماء تحل ، ادخرت القرش فوق أخيه وان حضر الخبز

يكون الملح رفاهية الغموس كما أوصانى أبى عامل السخرة القديم ، كان لابد أن أجمع مبلغـــا يوازى ما جمعته زوجتى ، فقد أنفقت المسكينة سبع سنوات من عمرها فى الغربة تعمل مثلى هى الاخرى مدرسة فى بلاد العرب سبع ســـنوات هى عمر ولدى « لميــاء » و « غادة » كانت المسكينة تعرف أنها تشقى فوق ما يحتمل البشر وكنت أنا أيضا أعرف لكننا قسمنا الشقاء فيما بيننا بالتساوى ، حتى الاولاد حصلوا ربما على أكبر نصيب منه ، هى فى الغربة وأنا هنا قائم بالبنتين ، وأنا فى الغربة وهى هنــا قائمة بالثلاث ، شاركنا الاولاد ايضا فى الحلم ، وصارت الشقة الجديدة هى مدينة المستقبل التى يرتعون فيها ويطلون من شرفاتها على الحياة ..

انسالت الدموع على خدى غزيرة ساخنة .. وكان طفلى البديع هشام يتقافز أمامى تحت ضوء القمر منطلقا كرجل صغير لا يلوى على شىء .. انتبهت فاذا بنا قد أشرفنا على جسر من الردم الاسود ، ثم انحرفت وراء هشام بحذاء الجسر فاذا على اليمين حفر عميق وعلى اليسار بيوت متناثرة وسط مستنقعات جافة فى كل خطوة كنت أتوقع أن تنغرس أقدامى فى الوحل ، لكن الكلاب الضالة كانت تمشى فنهتدى بها .. وكان السكون يكفن جثة الصمت ويكفننا .. فلما دب الخوف فى أوصالى سرت القشعريرة فى جسدى وانفجرت فى بكاء حاد متقطع متفجع ، فوقف هشام ينظر فى وقد اكفهر القمر فى وجهه الصغير الشفيف ، وصارت نظراته القلقة المهمومة تتطلع الى وتنكسر لتعـــود فتطلع الى .. جففت دمعى ، وبصعوبة أوقفت التشيج ، وبصعوبة أخرى قلت : « أمال فين بيت الحرامى ياهشام؟» قال هشام فى صوت حزين برىء : « ما أعرفش » صحت فى غضب أرعشه : « قلت انك تعرفه » . صـــآح موضحا بأصابعه الدقيقة المنخرة : « لا .. ما أعرفوش .. بس فيه راجل هنا بيبيع حلاوة ! » .

---

* سبتمبر سنة ١٩٨٠

الاضمحلال



الاضمحلال

لم أكن أنوى المجيء الى وسط البلد فى هذه اللحظة ، لكن سائق العربة الاجرة هو الذى عاقبنى على طولة لسانى ومراجعتى اياه فى التعريفة التى يفرضهـــا على كل فرد من الراكبين حتى ولو كانوا عائلة ، فدلقنى فى الشـــارع ومضى يلعن سنسفيل المدارس التى علمتنى قلة الادب ! ..

ولم يكن بى ميل الى البقاء فى وسط البلد دقيقة واحدة . ولكن السيارات بمختلف أنواعها كنست الطريق على وجهى فيما انا واقف . وكنت قد أمضيت ساعات طويلة أمارس الذلة بدون أن أدرى ، أفقت على نفسى رافعا اصبعى فى الهواء تجاه الفراغ والالم المصطنع رغم مبرراته القوية ـ يرتسم على وجهى ، وصوت أغلب اليقين انه صوتى يصيح فى متتالية متكررة : « مصر الجديدة والنبى ؟ .. الهى يعمر بيتك .. من فضلك والنبى يا أسطى باشا » . فما ان رأيت المقهى ورائى حتى ارتميت على كرسيها جسدا بلا كيان بلا نفس .

ولم اكن أريد ان أشرب الشاى او القهوة ولكن الجرسون البلطجى نبه على فى غلظة أن ليس عندهم سوى الشاى أو القهوة ، فتأسفت له وطلبت شايا أعرف مقدما أنه لن يروق لى شربة ..

ولم أكن أريد سجائر ولا حلوى ولكننى اشتريت قطعة شيكولاتة حقيرة غير انها أجنبية بنصف جنيه لكى يقبل البائع أن يفك لى ورقة بعشر جنيهات هى كل ما تبقى من مرتبى ولم يصل الشهر الى منتصفه بعد . ولم يكن فى نيتى دفع بقشيش للجرسون البلطجى خاصة بعـد أن جرح لى نصف الجنيه الآخر بثمن الشاى ، الا اننى لم أجد معه قروشا فكة فسلمت أمرى لله واستعوضته فى البريزة ..

ولم اكن اريد الانصراف من فـوق الـكرسى قبـل أن يحل بى الهدوء ، ولكن كثرة المنهارين على الكراسى دفعت الجرسون البلطجى الى طردى بوسائل مصطنعة بدأت برش الماء فوق ثيابى وانتهت بالصياح فى طلب الحى ! ..

ولم اكن أريد السير فى هذا الشارع الجانبى ولكننى حودت اليه مدفوعا بكتل من الزحام الخانق ، والجو كان مشبعا بضباب رمادى

داكن ، وفى راسى صورة لصدر المدينة المتحشرج وقد أصابه مرض الربو ، وكل هذه الجموع الهائلة ليست سوى طبقات فوق طبقات من البلغم المتكلس ! ..

ولم يكن بى رغبة فى الطعام ولكننى فجأة وجدتنى أمام رغيف ، بل عشرات من الارغفة البلدية الساخنة تصطف على الجريد فى لون النحاس المتورد ، فخيل الى أننى لم ار هـذا الرغيف من عشرات السنين وانه كان يختفى من ديارنا ليظهرها هنا ، فأحسست بالجوع المفاجىء ، فانسقت وراء الرغيف ، فاذا بى قد جلست فى محل شبه فاخر ولامع ، واذا به يبيع الكبدة والمخ ، ضربت الحسبة فى راسى فوجدت أن نصف ربع كيلو من الكبدة يرضينى ويعبد الى يدى بقية من أشلاء الجنيه أشرب بها شايا ودخانا ! ..

الترابيزات كلها مشغولة بمجاميع يأكلون فى صمت . ولم اكن أحب مراقبتهم ولكن جرسونا ما لم يجىء ليرى ماذا أطلب .. فوجدت لذة فائقة اذ اكتشف بلمحات سريعة خاطفة ان هذه المجموعة على هذه الترابيزات جاءت مع بعضها كمجموعة تعرف بعضها وأن هذه الترابيزة عليها اثنين متلازمين واثنين غرباء . ولم أكن أحب الشعور بالاغتراب ، ولكن وجدت ان المجاميع التى تعرف بعضها يبدو أعضاؤها وكأنهم يحاولون اخفاء ما بينهم من صلات ! ..

وكنت أتوقع جرسونا فجاءنى ولد صايع لا يزيد عمره عن عشر سنوات ، قيل انه ابن صاحب المحل وقـد تركه بدلا منه وذهب لبعض شأنه . ولد يحاول بكل صفاقة ، لا ان يكون رجلا فحسب بل رجلا وفتوة . وكنت قد سمعته يملأ الدنيا ضجيجا وصياحا وشتما فى الصنايعية الواقفين أمام الفرن ، يخاطب الزبائن بغلظة قائلا: « فلوسك يا باشا وانت ياخويا يا أبو بدلة .. اقعد ياسى بتاع اللى هناك .. احنا كده .. مزاجنا .. الخ الخ » ولم أكن أحب التعامل معه ولكننى لما رأيته مقبلا نحوى نافقته قائلا : « أهل بالمعلم » فرد كأنه المعلم بالفعل « أهلا يا أخ » . « طلبت نصف ربع من الكبدة » فقال كأنه يخاطب شـحاذا : « معندناش .. فيه مخ .. تأكل ولا متاكلش ؟! » فطلبت مخا بطبيعة الحال ..

جاءنى المخ متهرئا فى طبق تفوح منه رائحة الزفارة ، فتأففت ، ولم يكن بى رغبة فى أكله لكننى رأيت الجميع من حولى يلتهمونه فى شراهة فائقة ، فتأففت أكثر ، ومع ذلك رحت أجرع لقيمات مغمسة بالطحينة المزيفة بالدقيق والماء . أخذت الوك اللقيمات فى ملل حتى

وقفت لقمة فى زورى واردت جرعة ماء خلفها ، فوجدت ان الولد لم يحضر كوبة ماء . فكرت فى طلب الماء بصيحة غاضبة لكننى نظرت حوالى فلم اجد ولا كوبة ماء على الترابيزات ، فى حين تجمعت عشرات الاكواب فوق رخامة الحوض والحنفية مفتوحة على الفراغ . صحت فى كثير من الرقة ناظرا حـوالى كأننى اشرك الآخرين فى الاحسـاس بالامر : « هو مفيش مية ولا ايه ؟ » . فلم يلتفت احد الى ،وبدت بعض الوجوه كأنها تتحاشى رؤية وجهى الكريه . صحت من جديد فى مسكنه كأننى أستدر عطف الولد : « شوية ميه والنبى يا ابنى » . لكن الولد لم يســـــمعنى ، حيث كان واقفا يمزح مع الفاكهى المجاور وسط الزحام ، يتثنى ويتعوج ويخرج لسانه ويصدر أصواتا قبيحة من أنفه متفاخرا بسوقيته العظيمة ! ..

وكنت أردد صيحتى للمرة العاشرة واللقمة واقفة فى زورى حين تنازلت بعض الوجوه ونظرت الى باسمة واخرى الى الولد ضاحكة ، فلم أدرى ان كانت تسخر منى أم تحى صفاقة الولد ! ..

لكننى حاولت نسيان الماء مؤقتا . وصرت أشرب ماء السلاطة الحارق اللاهب واجرع اللقيمات . افقت على أن الترابيزة المجاورة لى مباشرة قد احتلتها مجموعة من الافندية وضح انهم شلة واحدة ، وكانوا يأكلون ويعلقون على اشياء خاصة بهم . كان منظرهم يوحى بأنهم جميعا مستريحين بشكل ما ، بعضهم يتحدث بلهجة المثقفين ، وآخر يتحدث بلغة البواكي – اى الآلاف – وثالث يتحدث عن مزايا الرحيل . ثم أنهم صمتوا فجأة وأبت فخامتهم الى حديث هامس ذليل ، لم اكن أحب معرفته لكن الهمس هو الذى ارتفع قليلا ، فاذا بأحدهم يقول للآخر فى مواجهة وضيعة : « انا مالى يا عم ما تقول له انت ! » ، واذا بهم جميعا يرددون نفس القول احدهم للآخر فى غطاء من الضحك الخسيس المفتعل ، ثم ابو الى صمت عميق لبرهة ، ثم اذا بمن يتخذ فيهم مظهر الحكيم يغمغم : « يعنى ماحدش قادر يقول له هات شوية مية يا ولد ؟! » . فهزوا جميع أكتافهم فاذا به ينهض فى حركة مسرحية ويتجـه الى حوض المـاء حيث الاكواب ، فيملأ لنفسه كوبا ثم يجرعها ويتجشأ كالحيوان الاليف ..

احسـست بالقرف ، وكان الزبائن يتابعونه فيما لا اعرف ان كان اعجابا أو استنكارا ، لكن صفا من الزبائن بدأ ينشأ فى اتجاه الحنفية والاكواب . وكان الولد يتـــابعهم وقد التمعت فى عينيه نظرة

شيطانية . ثم انه انتظر هنيهة . وحين تكاثف صف الزبائن فى اتجاه الحنفية والاكواب استدار الولد فى عياقة لزجة ، ثم اعتلى المنصة التى يجلس فوقها ابوه . وضع ساقا على ساق كما يفعل أبوه من قبل ، ثم صاح فى غطرسة : « اللى عاوز يطفح يقوم يخدم نفسه ! » .

المستنقع



المستنقع

.. رأيتنى فى عز الليل واقفا فى شرفة بيتنا وكانت الاضواء فيها باهرة كان يخيل الى ان صديقا ــ لا أعرفه ــ يقف بجوارى ، لاننا لحظتها كنانتحدث ضاحكين عن أشياء لابد أنها كانت مضحكة ، فيما ننظر باستهزاء الى الشـــــارع الذى لم يـكتمل بناؤه بعد ، والمستنقع الذى على يمين بيتنا ، والجامع الذى يبنيه الاهالى منذ سنوات مطلا على هذا المستنقع ، والبيت الدور الواحد ــ مثل بيتنا ــ الذى قد اكتمل فجأة وانتشرت على حباله قطع الغسيل رغم اننا كنا قد تعاقدنا مع صاحبه على تأجير احدى شققه . على بابه كانت لمبة مضاءة ، وعلى بابنا واحدة اخرى . وكنا ــ انا ومن لابد انه كان صديقى ــ نرى هذا البيت وبيتنا والجامع ونرى أيضا أنفسنا نقف جميعا على رءوسنا فى مياه المستنقع . كنت أنتظر قدوم زوجتى بفارغ الصبر ، وكنت مستعدا لها ، وكنت أعرف أنها غير موجودة بالبيت فى تلك اللحظة ، ثم رأيتها مقبلة فى الشارع ، بنفس فستان البيت ، تجر خلفها ابنتى الصغيرة . ابتهجت عندما رأيتها ــ وعرفته فى الحال انها خارجة من البيت اياه ، فلم يقلل ذلك من بهجتى ولابد أننى كنت أعرف انها كانت فى هذا البيت ثم أيقنت فى الحال أنها كانت تزور أبى قبل أن ينام فلعله يحتاج شيئا . كنت أعرف ان أبى قد مات منذ بضع سنين ــ ولم أكن أعرف لماذا هو يزورنا الآن ولماذا نستقبله فى هذا البيت ــ لا أذكر ان كنا قد استقبلناه أم لا ، انما أذكر فقط صورته فى هذا البيت ــ وهو متمـــدد على السرير داخل الحجرة ، والحجـــرة التى فى هـــذا البيت هى نفس الحجرة التى كان ينـــــام فيهـــــــا فى بيتنا فى البلد والسرير هـــــو نفس السرير الذى أنجبنا جميعـــا عليه ومات فوقه وقالوا لى يوم سافرت بعد ان دفنوه « وكان الفقيه ساعتها يقرأ القرآن على نفس السرير » انه ظل وقتـــا طويلا يؤجل للموت لحين وصولى . من الشرفة ناديت اسم ابنتى . وبعد برهة وجدتنى فى الشارع أداعب طفلتى فى شعرها ــ وكانت تتأثىء بصوتها المرسع وتقول ان جدها

لا زال صاحيا . اما أمها فاستمرت تسير . لحقت بها عند مدخل البيت وكنت مشفقا عليها من الارهاق لكننى كنت لا ازال اريدها . فاذا بها تتربع على سلم المدخل لاهثة ، وينفرط جسدها . انحنيت على راسها . أذكر اننى ابتسمت ، ولعلنى كنت أحاول مداعبتها « فى اللحظة الحبيبة جدا أرانى اداعبها بكلمات خارجة كيما اظفر بانهيار جانب كبير من وقارها » . كان ارهاقها من نوع يثير التشكك ـ ارهاق من النوع الذى يثير الغيرة . قلت لها ـ لا أدرى لم : « هل فعلها الرجل معك ؟ » . وكنت لا أزال ابتسم فلما نكست راسها رحت اتحسس جسدها وأراقب وجهها على الضوء العليل المتسرب من خلال تعريشة السور . كان وجهها جامدا جمود الموت ، وكان يبدو ان هناك شيئا عزيزا سلب من عينيها ، وقالت : « نعم فعلها معى » ثم اندفت شلالات الدموع ، قلت : « لماذا .. ماذا ؟ »

وأخذت أتحسس جسدها فى ذعر . قالت خلال دموعها وبكل طهر وبراءة : (الرجل مريض جدا) ورأيتها ترتفع بين ذراعى كحمامة مذعورة ، وتنحط من بين ذراعى كعجينة بلا ملامح . ثم اننى رحت أكتم صراخى حتى لا يشعر الصديق الذى فى الشرفة ، لكننى اندفعت أعدو ذاهبا الى ذلك البيت أصرخ وأبكى وأجز على أنيابى وأهدر : «سأدمره .. هذا العجوز الداعر سوف أكتم نفسه بالحذاء» . داست قدمى بعنف شديد فوق صرختى الاخيرة وأنا أزرعها فى عتبة البيت فيما أنا مندفع لاقتحامه . تعثرت فى الدرج ثم اعترضتنى عتمة ثقيلة فأدركت اننى سوف أعتدى على حرمة الجيران ، فاعتقلت خطواتى . وكنت مدركا ان قدمى لابد ستنزلق فى بئر ، ولكننى رحت أتحسس الظلام ، وكانت قد تعلقت بذهنى صورة أبى وهو ممدد فوق نفس السرير فى نفس الحجرة .

---

* ١٩٧٤

الكشكول



الكشكول

.. كنت قد دخلت الى الحانوت بالفعل . ولاحظت أننى أرتدى البيجامة والخف المنزلى – واحسست بحرج كبير رغم اننى موقن من أن أهل الضاحية التى اسكن بها يتقبلوننى على اى شكل . لكن سرعان ما اتضح لى ان الحانوت الذى دخلته هو فى الواقع حانوت حماتى الذى تملكه وتديره فى البلد .. ثم أدركت اننى كنت بالفعل أريد هذا الحـــانوت . أظن اننى ابتسمت للجالسين فى الحانوت لحظتها – فأنا لابد وان ابتسم لمن يجلسون فى حانوت حماتى . لم تعلق نظرتى بأحد ، لاننى فى الواقع لم أر أحدا واضحا بشكل محدد الا « حسنين » زميلى فى الشركة التى اعمل بهـــا موظفا فنيا . اندهشت طبعا ان يتواجد زميلى « حسنين » حتى فى دكان حماتى فى هذا البلد البعيد – وقلت لنفسى لابد أنها تعرفه أو هو يعرفها ثم عدت وقلت ان هذا ليس مهما فأى واحد يمكن أن يتواجد فى اى مكان لاى سبب . كنت حريصا على أن يلحظ دهشتى ويحس بها ، كى تظل ابتسامته العجــــوزة تتردد مثل بندول الساعة على شفتيه . ولما كنت اريد شراء شىء ما لا أذكره بالضبط – فاننى اعطيت النقود لحماتى واستدرت لاسلم على « حسنين » كما ينبغى واحاول الاختلاء به – فى هذا المكان المأمون – ولو لبرهة تكون صافية من اى محاذير . وحينما كانت يدانا متعانقتان فيما نتضاحك بصوت عال بزغ شخص بجوار « حسنين » بقميصه وبنطلونه وشعره المعقد بدا لى انه من سواقط الاعدادية . سلم على باحترام خبيث محاولا اعطائى فوق ما أستحق من التبجيل . وحين أبديت عجبى انعوجت ابتسامة « حسنين » ناحية الشخص اياه ثم قدمه لى قائلا انه من اخواننا . فاستدرت اليه ورحت أتدله فى تبجيله محاولا – لا ادرى لم – افهـــامه اننى لا يهمنى منه ولا من اى أحد ، ليس بالعافية ولكن بالحق . لا اذكر أن الكلام استمر كثيرا ، لاننى استدرت وأخذت الشىء الذى كنت أريد شراءه وخطوت مستئذنا فى الانصراف . ودعنى « حسنين » بابتسامة ، أما الشخص فقد عاد يحترمنى ويقول انه يتعشم أن يرانى مرة أخرى . ثم وجدتنى فى بيتى ، ولحظتهـــا

كنت قادما من دورة المياه وكنت أحس اننى لست على ما يرام ، وان شيئا ما في هذا البيت يضايقنى وانه الآن موجود وجودا حادا . على باب حجرة مكتبى كانت زوجتى واقفة ترتجف بينما تنظر داخل الحجرة . وبدا أنها كانت فى انتظارى . وبدا أيضا اننى كنت اعرف ان شـــيئا ما يدور فى حجرة مكتبى . ثم بدا اننى كنت أعرف ان « حسنين » هو واثنين لم أعرفهمـــــا من قبل ولا أذكر شيئا من ملامحهمـــا ـ موجـــودون ثلاثتهم فى حجرة مكتبى . كانوا جالسين يتحلقون كشكولا كبيرا تعــــودت ان أدون فيه مذكراتى الشخصية ولحظات صدقى مع نفسى . وحينما دخلت نظروا الى . لم أعرف ان كانوا مشفقين أو آسفين ، كما وأن أحدا منهم لم يتبادل معى كلمة، ولكن بدا لى أننى كنت أعرف انهم جاءوا الى بيتى يفتشون وانهم قد انتهوا من التفتيش . ثم نهضوا . وبدا اننى كنت أعرف انى لابد وان أخرج معهم . وكنت أفكر فى تغيير ملابسى ربما لهـــذا الفرض . لكننى حين تابعت الكشكول وجدته قد انتقل الى يد أحد الشخصين ، فنظرت اليه فنظر الى يستعجلنى فى النهوض معه . وقلت له : « لماذا تأخذ هـــذا ؟ » فلم يرد علي . فرحت انظر الى « حسنين » وأتوقع ان يفعل شيئا أى شيء وكنت أتوقع ان يكون هذا الشيء فى صالحى لكن « حسنين » كان يبتسم ابتسامة العجوز الغامضة ولا يتكلم . فاذا بى انخرط فى البكاء ، واقول أننى على استعداد للذهاب معهم ولكن لماذا يأخذون هذا الكشكول ؟ ثم قلت اننى لن أتحرك من مكانى الا اذا تركوا الكشكول . ضحك « حسنين » بصوت عال وأحسست انه بهذه الضحكة يتهمنى ويهيننى . ولا أذكر ان كانوا قد أخذونى معهم أم لا ، ولكن ضحكة « حسنين » لا تزال ترن فى أذنى .

---

* ١٩٧٤

الجرى وراء الربح



الجرى وراء الريح

كانت دارنا منهارة بشكل مثير للفزع ، خيل الى اننى كنت أتوقع ذلك منــذ مدة طويلة .. ثم خيل الى أننى لم أكن رأيتها أبدا الا هكذا : شرائح من جدران تقف فى العراء بلا سقف كل جدار يكاد لا ينتمى الى الآخر بأى اتصـــــال بل ان الجدران نفسها مشقوقة بالطول وبالعرض شقوقا نافذة . كان ثمة غرباء يجلسون بين الانقاض. كان يبدو على اننى أخاف أن تنهار الجدران السائبة على الجميع .. وكان يبدو على اننى لا أحب هؤلاء على الرغم من أننى أحاول ان أظهر حبهم على وجهى كما نفعل دائما عندما نجـد ناسا غرباء فى بيتنا ..

لا أعرف لماذا جئت الآن ولا أين كنت قبل هذه اللحظة انما أشعر اننى وهى قد خلقنا منذ زمن طويل بلا شك .. لم أعرف ما الذى يعمله هؤلاء هنا بالضبط وما شأنهم بدارنا ؟ وما مدى صلة القرابة بيننا وبينهم . لكن خيل الى أننى أعرفهم جيدا وانهم ليسوا غرباء على .. مع أننى أعـــرف لا من هم بالظبط ولا أذكر أى اسم من أسمائهم . كان ثمة رجل يخطب وسط الانقاض ، وكانت الجدران تهتز ، تئز ، تتمايل ، رغم ان صوتا ـ أظنه صوت تصفيق حاد ـ كان يراوغ ويغطى على أزيز الجدران ـ السائبة ..

فجأة لم يعد للجدران وجود . لم يعد هناك سوى أكوام الاتربة . خيل الى اننى لو فحت فيها فربما عثرت على أشياء كثيرة وكنوز دفينة لكن رؤية الخراب ارعدتنى ارهبتنى . ثم انه لم يكن هنـــاك احد على الاطلاق سواى وكان الجو موحشا والرياح تصفر فى أذنى.. لم يكن يشغلنى من الامر لحظة ذاك سوى الشباك الشرقى الذى كنت اغازل منه حبيبتى ابنة الجيران والباب السحرى الذى كان يربط دارنا بدار العائلة الكبيرة والسرير الذى تنام عليه أمى المريضة فى انتظار ان يدخل اخى الغـــائب كيما تريه كيف رد الروح فيها ، والكرسى العتيق الذى كان يتوضأ عليه أبى ودولاب الحائط الذى كان محشوا بالكتب الصفراء التى ورثناها عن جدنا الكبير .. لكن شيئا من هذا كله لم يكن له وجود .. رأيتنى أصعد فوق أكوام الاتربة

ربما لأتشبث بهـا . كانت صلبة صلابة حادة وساخنة ثم رأيتنى ممتطيا سيارة أندفع بها محلقا فى الفضاء وأمامى طريق مرصوف لامع رغم الظلام الداكن لكنه ملتو ومتعرج ولا اعرف كيف كنت أسير بهذه الدربة رغم أننى لا أذكر انى سقت عربة قبلها . كان ثمة اعتقاد بأننى سائر فوق جبال لبنان وثمة اعتقاد بأننى ذاهب الى موعـد وثمه اعتقاد ان الموعد فى مكان ما فى عمق الجبل . حتى ان العربة من تلقائها صارت تهبط وتهبط وكانت فروة رأسى ترتفع فجـأة فأعرف اننى هبطت فى حفرة لم تكن فى الحسبان . ثم طلع القمر خجولا فاذا بى أسير راجلا على شاطىء نهر خيل الى أنه نهر بردى . ثم انتبهت الى اننى أسير حافيا .. ثم اتضح لى ان الارض موحلة واننى أنزع قدمى منها بصعوبة شديدة . وكان القمر الخجول قد سقط فى الارض وانزوى مكتئبا فى قلب النهـر وكلما نظرت اليه توارى بين السحب وغاص فى الامواج . رأيت صيادا يخـرج من القاع ويتعقبنى بنظرة فعرفت انه يتشكك فى وجودى . حيـانى كأنه يستطلع هويتى فلما حاولت الاقتراب منه لاريه ملامحى على حقيقتها اذا بالاوحال تتراكم بين قدمى حتى منعتنى عن السير . خيل الى أننى ابتسمت لكن لا أعرف لماذا الابتسام .. صاح الصياد تجاهى صيحة لم أعرف لها منطوقا ، لكننى فهمت منها أننى متطفل وشحاذ واننى يجب أن أفر من هنا فى الحال . تذكرت ـ بقليل من الراحة ـ بطاقتى العائلية حيث يمكن أن تثبت اننى شخص ذا بال فى وطنى ، ثم رحت أبحث عنها حتى وجدتها فرفعتهـا فى يدى مثل منديل الامان ، فطلبها باشارة من اصبعه ، فرميتها فى الهواء تجاهه بأمل أن يتلقفها لكنها انفردت فى الهواء وصارت الريح تعصف بها ذات اليمين وذات الشمال حتى صارت كالملاءة وكانت ترفرف على رأسى ففرحت وقلت لنفسى : هذه ملاءة تنفع السرير العارى لكننى حين تأملتها عن قرب وجدتها رقعة عريضة من أوراق الصحف ، وكان عليها كتابه ، وأبى يعلمنى ان الدوس بالحذاء على سجادة الصلاة جريمة وأن رمى الكلام المكتوب فى الارض جريمة أيضا لان كلاهمـا على اسم الله مقدس وجليل بدا على اننى كنت أعرف انها مجرد ورق وان ما عليها مجرد سطور مطبوعة ، لكننى مع ذلك طويتها فى احترام ورحت أمر بصرى على سـطرها فيما أنظر بين الفينة والاخرى الى الصـياد مبتسما ، ربما لأجامله . على أننى نظرت

فلم أجد للصياد أثرا ثم اتضح لى ان النهر لم يكن نهرا ، وكانت ثمة خطوات لشبح مقبل من بعيد قد أخذت ترن وتئز ثم اتضح ان الفضاء العريض مرصوف ولامع وانه لهذا يعكس القمر . لم يكن ثمة أوحال .. لكننى كنت ما أزال حافيا . أحسست انه يجب على أن أتقدم لملاقاة الشبح فى الطريق بوضوح حتى لا يتشكك فى وجودى .. ما ان خطوت حتى غاصت قدمى فى الارض فأحدثت صوتا خبيا وانسكبت مياه فوقها فعرفت ان الارض محروثة كلها وانها مروية حديثا ولذا فهى مغطاة بصفحة الماء وانها لذلك تعكس القمر .

حين خلعت قدمى وأرجعتها كان الشبح قد اختفى .. صحت من الخوف وخيل الى أننى ناديت أحدا .. وخيل الى ان من ناديته قد رد على فناديته من جديد فرد على باسمى ، وكان الصوت يخرج من الحفرة التى فقأتها قدمى وعرفت من صوته انه يعرفنى جيدا وانه من بلدتنا بدليل انه يســــألنى عن الصحة والاحوال والاهل والجيران فردا فردا بأسمائهم . وكان يبالغ فى الترحيب بى والفرح بقدومى . مما جعلنى أوقن اننى لابد قادم من مكان الى مكان ما . خجلت ان أسأله من هو . انما رحت أسأله عن الصحة والاحوال . فضحك حتى بقللت المياه فى الفجوة الصغيرة وقال فيما أظن — انه جارنا القديم . « عبد السلام » الذى مات فى مكان ما فى مناسبة ما لا أعرفها . ولكن أذكر ان الحزن على موته كان كبيرا . سألته عما جاء به الى هنا ، طالما انه يعتبرنى قادما . فقال : لا أدرى فقلت له : اذن فأين نحن الآن ؟ فقال : لا أدرى ولكننا بالتأكيد لسنا حيث دفنت منذ زمن قديم . قلت له : لعل الارض زحفت بك الى هنا ؟ فقال : أو زحفت بالآخرين فوقى . فلم أفهم من كلامه شيئا . وفى الحال جف ريقى كأن سكينا انغرزت فى حلقى . ارتأيت أن أشرب من ماء الحفرة . كان على أن أنبطح أرضا لأتمكن من عب الماء وشفطه على مهل . فلما انبطحت رأيت النهر يجرى فى السفح عريضا هائلا عملاقا ولكن بينى وبين الماء أميال وأسلاك شائكة . فاعتدلت واقفا . فاذا بنهر آخر يلمع من بعيد . كالسيف وبدا انه من الصعوبة تمييز الارض عن السماء . خيل الى ان قامتى تطول وتطول . ثم وجدتنى أقف فيما بين النهرين . وثمة مدينة كبيرة ترتفع قبابها وابراجها فجعلت اقترب منها فى فرح ونشوة وكان ثمة أصوات راقصة ، مغنية ضاحكة ، نشوانة ، رنانة ، تتفلق من المدينة الساحرة الساهرة . وكان

صدرى عريضا مثل جلجامش . وقامتى مستقيمة ورشيقة واثقة مثل رمسيس لكن شيئا ما ، لا أدريه بالضبط ، جعلنى أتسمر فى مكانى وأفقد قدرتى على الحركة والنطق ثم رأيتنى واقفا فى باب الحديد وتحت ابطى كتاب أظنه ملحمة ايزيس وأوزوريس وكنت لتوى قد اشتريتها من على سور الازبكية ولم أكن أعرف لماذا أنا موجود فى باب الحديد ، ولكن الظلام لحظتهـــا كان قد بدا يتكاثف ويتراكم والسماء ترعد وثمة صراخ وعويل وحناجر تهدر وكلاكسات تسبح بايقاع الهدير . وأمواج من البشر تتدافع وتطالب المنسحب أن يرجع فى قرار الانسحاب فسالت عن الامر فقالوا لى : لا نعرف ولكنه قرار اتخذ الليلة . ونحن لا نحب الانسحاب نحن ضد الانسحاب .

فيما كانت الامواج تتدافع وتتصادم كنت أنسحب دون أن أعرف فى أى اتجـــاه أسير ، ذلك ان كتل البشر كانت تسير فى كل الاتجاهات بلا تمييز واضح . ولم يكن لى مزاج لاى شىء . فجأة رأيت أثنين يتبعاننى . فتوقفت عن السير . فتوقفا . ولما استأنفت السير استأنفا . أسرعت فأسرعا فتوقفت فى الحال ، واستدرت اليهما وقد تجمعت قبضة يمناى وتشنجت أطرافى فتوقفا . فذهبت اليهما وكان يخيل الى اننى انتوى شرا . وفى الحال رأيتنى أقف على رصيف المحطة أنظر فى الناس وأتفرس فى وجوههم بما لا أعرف ان كان ودا أم ارتيابا . كان الرصيف طويلا وعريضا كساحة مسرح رومانى . ثم اتضح اننا فى معبد الكرنك ، الذى رأيته فى كتاب المطالعة .. بدا اننى أعرفه طوبة طوبة ، ومن المؤكد اننى كنت أختبىء فى هذه العواميد أثناء الطفولة عند اللعب . لم يكن ثمة صوت . لكن ثمة أفواج من الرجال كانت تتدافع مقبلة من بقعة ما لا أراها . منكسة الرءوس فى ذلة . وكان من الواضح انهم جميعـا يحسون بالعار . وانهم مهانون حتى النخاع وكان بينهم بعض أخوتى وأصدقائى وزملائى وكان يخيل الى أن الارض هى التى تتحرك بهم فى زحف أسيف . وكانت البوابات والجدران والعواميد تختفى شيئا فشيئا . ثم رأيت الجموع تصطف وسط الصحراء وكانوا عراة الا من ورق التوت . الـذى يستر عوراتهم . وكنت واثقـا ان ليس فى الامر قتالا . وكنت واثقا ان ليس فى الامر من سلام . ثم اننى تعجبت من وقوفنا هكذا . ثم تنبهت الى أن ثمة رجل يرتدى حلة ممن يجلس على مكتب أمام صفوفنا المتراصة . وأمامه زجاجـة أظنها مياها

غازية . فى يده سيجار غليظ . يضع ساقا على ساق . سألت رجلا يقف بجانبى عن الامر فنظر الى ساخرا محتقرا . قال بعد برهة اننى لابد أن أكون على علم بأننـــا ذاهبون الى الحجاز . فلم أصدقه . وانتويت ان أعنفه على طريقته فى الــكلام فوجدتنى واقفا خلف الرجل ذى الحلة الثمينة ، حاملا صينية عليها كوب من الماء وفنجان قهوة وعلى ان أميل لوضعها على المكتب امام السيد . وكنت لا أزال مشغولا بأمر هذه الجموع الحاشدة ثم اتضح ان هناك من يضربهم بالشلوت وبالعصى فظلت جموعهم تتضاءل حتى أبت الى طابور هزيل متهالك وكانت زوجتى تقف فيه حاملة بطاقة التموين وكانت فى نهاية الطابور بوابة تفضى الى الخلاء ويتدلى من سقفها حبل معلق فيه رجل مشنوق . وكان يهتز كبندول الساعة فاستدرت عائدا وكنت قد تذكرت ان أولادى يحلمون بعودتى مبكرا .. ثم اننى وجدتنى أمشى على طريق زراعى وكان يبدو على اننى أسير منذ وقت طويل طويل وكان يبدو على اننى متلهف على قدوم شجرة الصفصاف التى أن رأيتها أحسست بأننى صرت فى زمام بلدتى وعلى أبوابها . كانت الشمس كسبيكة منصهرة من الذهب . ثم سمعت صوتا لوقع حوافر أخذ يقترب خلفى ويتضخم، فلم أعبأ به ، وقلت لابد انه واحد من علية القوم كان الخدم ينتظرونه بالركوبة على المحطة . ثم اقترب موكب صغير لرجل يلبس حلة أنيقة ونظارة طبية ويركب فوق حمار بسرج ولجام مذهب ، ويضع أمامه حقيبة جلدية أنيقة ، وعلى الجانبين رجلان يلهثان بجوار الركوبة . عرفتهما على الفور . انهما سعيد باشا وسمير بك من أبناء بلدتنا القدامى .

ابتسمت ولما كنت أعرف أنهما غائبين منذ زمن بعيد رأيت من الواجب أن أسلم عليهما باعتبارهما يعـــودان بعد غيبة كهذه .. وباعتبارى أعود بعد غربة طالت ولا أذكر بدايتها .. كان منظرهمـا يشى بأنهما لم يفقدوا شيئا من مظهرهما القديم وانهما لم يخسرا شيئا بموتهما . تهيأت لاستقبالهما .. لكن الركوبة ظلت تسير دون أن تعبأ فيما يلهثان بجوارهما أحدهما يحنن الركوبة بـكفه والآخر يستحثها بعصا قصيرة رفيعة .. لما حاذتنى الركوبة وجاوزتنى كنت قد تأكدت ان الافندى الراكب عليها هو واحد من الغرباء خيل الى اننى أرى صوره كثيرا فى الصحف فوجـدتها فرصـة لأراه رؤية العين . فجعلت أجرى خلف الركـوبة لكنها غاصت ثم اختفت فى

وكنت لا أزال الهث واتصبب عرقا حين رايت أخي وأبناء عمومتي وخلفهم رهط كبير من الفلاحين يهرولون قادمين من البلد . سألتهم ما الخبر فزغدني أخي وقال لي : أما ترى يا أعمى ؟ .. فنظرت ورائي فرأيت حريقا هائلا لابد انها كانت جهنم الحمراء حيث كانت أمواج اللهب العاتية تزحف في حقول القمح المستوية .. رحت أصرخ مع الصارخين وأجري معهم في اتجاه ترعة المياه رغم انهم يحملون أوعية بينما انا لا أحمل الا انني كنت أجري بجنون في اتجاه الماء حتى انني سبقتهم جميعا . وظللت أجري وأجري حتى اذا ما وصلت شاطيء الترعة وجدتني وحدي ونظرت فلم أجد للنار وجودا ولم يكن في الترعة من ماء وانما كانت تنتشر على شـــاطئيها اكوام من الردم الرمادي .. وكنت أحب العبث بقطع الردم في صغري كأنها فتافيت السكر وكان أشد ما يفرحني ان أفرك القطـــع بأصابعي فتنفرك بسهولة وتنساب من بين أصابعي ناعمة كمياه جففتها الشمس الى حين .. رأيتني أرتمي على كومة الردم ويحلو لي التمرغ مثلما كنت أفعل .. لكنني احسست بعظمي يتكسر فوقهـا فكذبت نفسي ولم أصدق . ثم انني اخذت أخمس فيها بأظافري .. فأرى أصابعي تغوص فيها بسهولة .. لكنني حين اخرجتها وجدتها ملوثة بالدم .. وكان دما ساخنا .. فانتفضت صارخا وحاولت الوقوف فلم أستطع، فرحت أتمرغ واكوام الردم تتمرغ فوقي .. وكنت أحس بأنني على وشك الاختناق ، لكن رائحة الطمي سرعان ما كانت تفيقني . على ان يدا امتدت ورفعتني معتدلا . زغدتني ثم أشارت بأصابعها فعرفت انها تطلب بطاقتي ففتشت عنها فلم أجدها . فاعتقلني ولم أكن قد رأيته بعد . ورغم انه أمرني بالتوقف في مكاني ثم اختفى يدا وصوتا الا انني لم اكن قادرا على تحريك يدي أو صوتي ، كانت عيني فقط هي التي تتحرك فوق أكوام الردم التي كانت تصدر انينا مكتوما وكانت ثمة اقدام لناس غير مرئيين تدوس فوقهـــا بأحذية ذات أشكال والوان غريبة فتنطلق انة او تندفع نافورة من الدم . فلما رفعت بصري محاولا رؤية الاجساد صاحبة الاقدام لم أجـد سوى الجدران السائبة ، تقف في العراء بلا سقف ، كل جـدار يكاد لا ينتمي الى الاخرى بأي اتصال ، بل ان الجـــدران نفسها مشقوقة بالطول وبالعرض شقوقا نافذة ، وكان الغرباء يصرون على البقاء بين الانقاض وكان يبدو على انني اخاف أن تنهار الجدران

السائبة على الجميع ، وكان يبدو على اننى أعرف هؤلاء ، أعرفهم جيدا ، وكان ثمة رجل يخطب ولم أفهم من كلامه شيئا .. ثم انتبهت الى أن حولى وخلفى جموعا هائلة ممن يبدو أنهم أصدقاء وكانوا مثلى مسمرين فى وقفتهم ينظرون الى الاطلال فى بلاهة وشرود ، وكانت الصلة الوحيدة التى تربطنا جميعا بالفرباء هى الشقوق النافذة فى الجدران السائبة ، اذ كنا نراهم ويروننا من خلالها فقط . كان صوت الخطيب لا يزال يدوى دون أن نفهم من كلامه شيئا ، لكننا كنا نعرف أنه يشتم فى عباد الله الفاسقين . ثم ان الوقفة طالت ولم نعد نعرف ان كان الخطيب لا يزال يخطب أم أن الاطلال تردد أصداء صوت قادم من زمن سحيق لكنا كنا بالكاد نستطيع النظر الى بعضنا البعض بدون أن نتحرك أو نفعل شيئا فقلت لنفسى .. لعله الذهول يطول. فاذا بالشقة تتسع بين جدارين واذا بمركبة تخرج من بينهما تبينت فيها انها ربمـــا ـ كانت السرير الذى تنام عليه أمى المريضة فى انتظار أن يدخل أخى القـــادم من الفربه كيمـــا تربه كيف رد الروح فيها . ندقق . كان ثمة جسد ميت لعملاق يتمدد ملفوفا بالكفن تلاحقه قافلة من الغلمان تنهال عليها بالكرابيج فى عنف وشراسة لا مثيل لهما فى الجحيم . وكان الجسد الميت ينتفض داخل الكفن مثل سمكة تتقلب فوق اللهب وخيل الى انه يبتسم فى مرارة ابتسامة فهمت منها انه غير عابىء بشىء وانه كان واثقا ان شيئا من هذا سيحدث له .. قلت لنفسى أين نحن واقفون ؟ ثم نظرت أمامى فلم أجد أرضا ، ونظرت خلفى فلم أجد أرضا فعجبت كيف نقف هكذا معلقين فى الفضاء ثم قلت لنفسى لا اننا الآن فوق الصراط المستقيم الذى كان فقيه الكتاب يحكى لنا عن وجوده يوم تقوم القيامة ، فعرفت ان الجحيم فى القاع ينتظر من يسقطون عن الصراط وان الجنـــة الموعودة فى نهـــاية الافق تنتظر من يعبر الصراط اليها . ولكننى رأيتنى بين الاطلال والجـــدران السائبة تتحرك لتطبق على ثم تعود فتنفرج ، فأجرى من بينها مذعورا ولم يكن هناك بشر فليس ثمة صوت الا صوت الريح العاتية التى راحت تهب من جميع الجهات الى جميع الجهات ووجدته ـ السرير . اندفعت اليه ـ كانت الريح قد طيرت عنه أوراق الصحف وكانت تنام عليه أمى وكانت عارية لـكن ذراعيها الممدودتين بجـوارها كانتا تنتهيان بكفين مبسوطتين على فرجها .. كفتاة تحمى عفافها فاشتدت الريح واشتدت .. ثم انها أخذت تشتد ..

★ سنة ١٩٧٤

حجران بالمصفاة



حجران بالمصفاة

اشتقت أنا وصديقى الى شرب حجرين بالمصفاة ، فمنذ أن ارتفع ثمن الحشيش انخفضت شهيتنا للشرب ثم عادت وتزايدت برغبة مسعورة كأنما لنتحدى بها القوانين التى لاتنى تنهال على رءوسنا من كل حدب وصوب خاصة فيما يتعلق بأمزجتنا لكن ضيق ذات اليد جعل الواحد منا يدخر القطعة الصغيرة ليدوش نفسه بسيجارة أو اثنتين منها على الاكثر كل ليلة ، يستطيع بموجبها أن يتقبل سخف الليالى ، ويجلس أمام التليفزيون ، وينصت الى شكاوى زوجته وأمنيات أولاده التى تبدو بلا حصر وتبدو أيضا مجرد أمنيات غير مؤهلة للتحقيق أبدا ...

لكن الحشاش منا يتوق الى ضرب الجوزة والاستماع الى نغمها ، والى تطويع المصفاة بالنار حتى تتوهج ، ويشتاق الى حشو فمه وطاقتى أنفه بنفس دخان الجوزة الكثيف ليكتمه فى طاقتى الانف حتى يصعد الى المخ مباشرة محدثا أزيزا كأزيز صوت فرملة الخطر ..

كنا فى أوائل الشهر وكان صديقى المثقف يحلم بالسفر الى بلاد الغربة ، ليس ليجمع قدرا من المال يقيله من عثرته فى وهدة العذاب والشقاء ، وليس من أجل شقة يلتقى فيها بزوجته المغتربة فى بيت أمها المغتربة بدورها فى بيت أخيها ، بل ليكتب رواية عن حياة المصريين المغتربين ، وكيف يتصارعون هناك ويدس بعضهم لبعض ويصغرون أنفسهم فى أنظار مخدميهم ، وكيف — مع ذلك — يقيمون هناك صروح حياة ويؤسسون للعمران ، هى ملحمة بلا شك ، ولم يكن يحلو له هذا الحديث فى هذا المشروع الا ونحن نشرب حجرين بالمصفاة على يد ولد غرزجى شاطر . ولم أكن أمل من الاستماع الى مشروعه طالما اننى لن أتكفل وحدى بدفع نفقات المعسل والحريق فضلا عن اننى صاحب القطعة التى سنرص منها . ومن طول عشرتنا للموضوع لم نعد نترك الامر للتلميح بل صرنا كلما التقينا يخرج كل منا بضع جنيهات ونذهب لنشترى ربع قرش بثمانى جنيهات من مصطفى زقزوق فى حى الجمالية ، ونجتهد فى الا يزيد حساب المعسل والحريق عن جنيهين آخرين حتى يتكفل كل منا بخمس ، تعودنا أن ندفعها وفى عيوننا وأيدينا رعشة غريبة تقول ان هذه الورقة

النقدية دون أوراق النقد على الاطلاق غفلت فى هذه اللحظة عن ذكر الله فانسربت وضاعت بددا ، وتظل وقتا طويلا مهمـــا يصل الى عشرين حجر نتذكرها ونجرى بشأنها حسابات نحاول جاهدين أن نجعلها تتوازن بدونها . لكننا فى العشرة الثالثة أو الرابعة نكون قد نسيناها ونسينا كل شيء ، اذ ينســاب صــديقى فى حكى صــور ومشاهد مما يسمعها عن المصريين فى بلاد النقود والنفوذ ، وانماط غريبة ، وكيف سيسلكها فى الاطار الفلانى ويربطها بالوضع العلانى، ولم أكن أدرى أهو متحمس هكذا بفعل الرغبة فى السفر أو بفعــل النشوة من مشروعه ؟ كما لم أكن أدرى اذا ما كنت أستمع اليه بكل هذا الحماس لبراعته فى الحديث أم لاهتمامى انا الآخر بالمشروع أم لرغبتى الدفينة فى السفر واللحاق بسنة مالية أو أكثر ؟ .. الشيء الوحيد الذى أثق فى وضوحه هو حبى للاستماع اليه قدر حبه للحكى عن مشروع السفر .

قعدتنا المفضلة هى شبه مقهى صغير فى حارة سد فى حى عتيق جدا من احياء القاهرة الجبرتية ، حيث تتكاثف البيوت وتتقارب لتمنع نفسها من السقوط وتتهامس بكثير من عواطف تصلب عود الزمن ، وحيث الرطوبة المحببة تشيع فى المكان ، وحيث يحلو للانسان ان ينفض ذهنه من كل المشاغبات ، ويتفرج على غزلان بشرية تخطر فى الحارة رائحة غادية تسكب على المكان عبقا يبل الريق ، وحيث ينشط الولد الاسمر الطويل فيسيخ لنا الجــوزة ويسلك الحجارة ويدشدش النار فى المصفاة وينقيها من الهباب حتى تصبح كحفنة من حب الرمان ينثرها بقدر على الحجر ويمس علينا بالخير والقشدة، بلاغينا ، يحدثنا بلغة المثقفين تارة ، وأولاد البلد تارة أخرى ، ويطجن اذا لزم الامر ويحرن اذا أكثرنا من الملاحظات عليه ، ويعطينا ظهره و « يطفشنا » فى المرة القادمة اذا لم تملأ البقشيش عينيه .

حين وصلنا كانت حالته آخر تمام ، وجهه يضحك وجسده فى دوامة نشطة يشوبها قليل من الارتباك العميق والعصبية المغطــاة بالابتسامة ، قلنا : بشرة خير . ثم جاءتنا الحجارة ومضى صديقى يتأهب للحديث ومضيت أعانى من شعور الكآبة بدا يثقل على صدرى من أول ما فككت السلوفان عن التعميرة ، فقد اكتشفت أنها «سكه» اى مغشوشة وسوف تصدع رأسنا دون سطل حقيقية . لم أشأ تعكير صفو صديقى فتركته ينساب فى الحديث الى أن كف عنه

فجأة وامسك برأسه واشتكى من الصداع ، فطلبنا شايا تنادى به الولد الاسمر فى عجلة ، ثم لاحظنا أنه أدار بصره من جديد نحـو بلكونة قريبة من الارض فى منزل على مقربة منا ، وكان يتابع مايجرى فى البلكونة بكثير جدا من الاهتمام والعصبية . أخذنا ننظر بدورنا فأدهشنا وجود فتاة فى نضج الصبا ينساب شعرها الفاحم الغزير على كتفيها فى تناسق بديع مع وجهها الصبوح الطـازج الجميل ، ترتدى فستانا ثمينا جدا وتفوح منها عطور ثمينة ، يتحلقها رهط من النسوة والصبيان يرتدون كلهم ملابس جديدة ويمسك الاطفال بلعب كهربائية تبدو غالية الثمن ، وثمة تليفزيون ملون فى حجم حقيبة اليد مفتوح ومتروك وحده خلف ظهورهم .

تلاقت نظرتى بنظرة صديقى على معنى أصبح واضحا لنا ، أيده الولد الاسمر تأييدا قاطعا بأن أطلق من صـدره زفرة حرى مليئة باللوعة ، فنظرنا الى بعضنا من جديد كأنمـــا لنختم على صحة ما توقعنا ، اذ أن الولد الاسمر – لابد – قد وقع فى غرام هذه الفتاة الساحرة . ضحكنا من هذه القفشة المـكررة غير المثيرة ، وصرنا ندبر للهزء بصاحبنا فى نكات نمازحه بها ، فنظر صديقى اليه والى الفتاة قائلا بغمزة خبيثة : « لا فل ياد . حتة تستاهل » . حينئذ هب الولد الاسمر ضاحكا من دباديب أظافر قدميه : « اوعدنا يارب .. امتى بس .. امتى » . وقلت أنا ساخرا : « شد حيلك يلا وتقل جيبك » . فانبرى يصيح بقلب ملكوم من اللذة والالم : « امتى بس امتى » . وعلق صديقى : « مش فيه تفاهم بينكم ؟ » . قال الولد الاسمر : « البنت دى يا سعادة البيه سافرت الدول العربية سنة واحدة بس زى اليومين دول .. يا سلام على يوم رجعتها .. وعلى اللى جابته .. كسوة ليهم كلهم .. فساتين ايه دى وبدل ايه دى وتليفزيونات وتسجيلات . والنهاردة أبوها كان بيدور على شقة جديدة يشتريها .. غير التاكسى اللى هى تبعت أقساطه كل شهر » . صور مكررة أيضا هكذا قالت نظراتنا . صحت قائلا : « وطبعا كانت بتحبك قبل السفر ودى الوقت بقيت بالنسبة لهـــا غرزجى » . انخرط الولد فى رفع رأسه الى السماء وهو يردد : « اعمل معروف يارب .. امتى أشوف اليوم ده ؟ » . وقال صديقى ساخرا : « امتى ايه بقى ما خلاص يا حلو راحت عليك » . قال الولد الاسمر : « لا يابيه ما خلاصش ولا حاجة .. على العموم

هانت .. ديتها سنتين تلاتة » . وبدا كأنه ليس ذلك الولد الذى كنا نعرفه ، بدا كأنه يهذى ، ثم انه استطرد بعد برهة : « امتى الواحد يشوف اليوم ده » . قال صديقى : « أنهو يوم يا أسمر ؟ » . قال الولد : « حيبقى أسعد يوم » . قلنا بعصبية : « ليه .. حيحصل فيه ايه ؟ » . قال الولد الاسمر : « بنتى حتكبر يا سعادة البيه .. وتبقى عروسة .. وتسافر .. وترجع زى رجعتها » . ففى الحال ابتعدت نظرة كل منا عن نظرة الآخر وأخذت تتوارى الى بعيد كأنها تبحث فى خجل عن شىء ابتلعته الارض ، وحط علينا صمت امتد بينا جلسات طويلة بعد ذلك ، لاحظت خلالها ان صديقى لم يعد يحدثنى عن مشروعه مطلقا .

جعفر والقضية



جعفر والقضية

سوف أعتذر عن الحكم فى هذه القضية . سوف أعتذر عن العمل فى سلك القضاء برمته ، ولسوف أعتذر عن كل شىء . انها قضية معقدة وغريبة هذه التى قدر لى أن أكون فيها قاضيا ثم اتضح لى اننى جزء لا يتجزأ منها .. فكيف سأنسلخ منها لاحكم فيها وأنا لم أعد أحس بذلك الاحساس الفريد المفعم بالاشراق ، الذى كان يعاودنى كلما تذكرت أيام كنت أجلس فى مندرة ابى فى قريتنا واستحضر منصة الحكم بكامل هيأتها واستحضر قاعة الجلسة ، أما القضية فلم يكن هناك سواها : قضية مصر .. فمن يعطينى القدرة اليوم على الحكم على « عيسوى » بالطرد من أرض مالكها ؟ ..

نعم ، فلعله مما يثير ضحكى الآن اننى كنت أحلم ذلك الحلم الساذج فى صباى فيما كنت طالبا بمدرسة الحقوق .. هل ترانى لم انجح فى ميدان السياسة لانى بطبيعتى حالم ؟ .. من يدرى ؟ لعل الحلم حين يبدأ ساذجا أخرق يتخذ بعد ذلك مسارا انتهازيا كالذى بدأت أسلكه قبل تخرجى بسنوات قليلة ..

هل كان سلوكى هذا من قبيل التعجل فى « الوصول » أم انحرافا عاطفيا أم هو بدافع انتهازى محض ؟ .. فالأمض معك بهدوء خطوة خطوة . انت فى مدرسة الحقوق كنت طالبا لامعا بلا شك ، لا تقل لى ان لهجتك الريفية الطريفة بخشونة ألفاظها وسط النواعم من أبناء الذوات ، كذلك سلوكك الريفى المحض كان له دخل فى شهرتك فى المدرسة من أقصاها الى أقصاها . لاننى حينئذ سأقول لك انك كنت تتمتع باحترام خاص من كل الاطراف الشيوعيين والسعديين والدستوريين والاخوان فضلا عن أقرانك الوفديين ، وانت لا تنسى انك شاركت فى حل مشاكلهم الشخصية ويا طالما جاءتك الدعوات للحوار فى جلسات خاصة ، وكان الجميع يحترمون فيك ما يتلاقون معك جميعهم عليه : القضية .. قضية مصر .. تحريرها ممن هم من غير أهلها .. تطهيرها من الدخلاء .. من العدو الاجنبى .. اما اختلاف الاساليب والادوات فهو تنويع على لحن واحد . كانت

الشعارات كثيرة وحين يتعمق الحوار تتساقط الاقنعة ولا يبقى سوى الملامح الحقيقية للوجوه وللشخوص وللفد المنشود ..

غير انك ــ يا حلو ــ سقطت ، سقطت وانتهى الامر تماما . انت الآن تتنفس من حلاوة الروح ليس أكثــــر . ضحكت عليك البنت البلهاء التافهة لا تدرى كيف ! كيف أحكمت سيطرتها عليك ؟ كيف جعلتك تصمد أمام نكات الزملاء وتجريحهم لمبادئك ؟ وكيف احتمل قفاك لحس ألسنتهم الساخنة الحارقة ؟ وكيف رحت تبرأ لنفسك تصرفك هذا بأنه عين الحكمة ؟ .. اية حكمة فى هذا وانت ببساطة ارتميت فى أحضان البلهاء حيا ..

بدأت العــــلاقة بينكما عادية جدا مثلما تبدأ مع الجميع : لقاء فابتسام ، فاستخفاف دم ، كأس ، رقصة ، موعد ، لقاء ، خطبة ، عقد قران نجاح فى الدراسة .. هكذا دون مذاكرة أو وجع دماغ .

كان معظم أبناء الجيل يفعلون مثلما فعل آباؤهم واشــــقاؤهم : يتزوجون أو يسعون للزواج .. من فتاة تركية الاصل قريبة من سلم السلطة .. أما أنت فقد اخترتها مصرية .. نعم كانت هذه الحجة الواهية الحقيرة هى الوحيدة التى لا تفتأ تتشدق بها أمام الزملاء والاصدقاء بمناسبة وبلا مناسبة :

« ان زوجتى من أصل مصرى وهذا يكفينى شرفا .. كونها من أسرة ثرية وذات أملاك شاسعة وابنة باشا عريق فهذا لا يعيبها .. وما دامت هى طوع أمرى أنا فالامر اذا منته » .

ماذا كنت أقصد بقولى هذا ؟ هل كنت أمنى النفس باستخدام هذه الزيجة فى تحقيق أغراض وطنية مثلا ؟ أم ترانى كنت ابرر بها سقطتى ؟ ..

الواقع اننى ادركت عمق الهاوية منذ اللحظات الاولى . كان مما يزيد عمق الهاوية اننى لم أترك فرصة للرجوع مرة واحدة انتقلت حياتى نقلة شاهقة ، فلقد سلكت الى القضاء ماشيا فوق السحاب ، ولو ترك الامر لكفاءتى الخاصة أو على الاقل لظروف الترقى الطبيعية لمــا تحقق لى شىء من هذا وربما كنت الآن مجــرد موظف بوزارة الاوقاف أو ما أشبه .. غير أننى دفعت فى مقابل هذا ثمنا باهظا ، ليس فقط سمعتى فى الاجواء السياسية والصحفية والطلابية بل دفعت عمرى كله . لا اكون كاذبا اذا قلت اننى حاولت الفكاك ، لكننى تقريبا كنت قد عجزت عن اتخاذ اى موقف . والحق اننى

لا أعرف : هل عجزت عن اتخاذ موقفا أم انني أساسا لا أملك القدرة على اتخاذ موقف ، خاصة اذا كان موقفا حاسما يتعلق بمصيرى ؟ .. اذا كان ذلك كذلك فكيف اتخذت موقفا بالزواج من ابنة الباشا ؟ .. هل الزواج من ابنة الباشا يعتبر موقفــا ؟ يخيل الى ذلك ، اذ المفروض انني ضد أبيها وضد طبقته وضد كل من يرتمون فى احضان الاسرة المالكة بحثا عن الثراء او السلطة او الحماية وان انسلاخى من طبقتى ومن جماعتى وانتمائى الى هذه الطبقة التى هى اصلا بلا مبادىء يعتبر ليس فقط موقفا بل موقفا منحطــا .. فاننى حين تزوجت من ابنة الباشا خلعت شخصيتى ورميت بها من نافذة الفندق فى باريس فى شهر العسل ولم يعد لى راى فى ثراء الاثرياء لاننى نسيت فقر الفقراء . كانت حجرة الفندق المضمخة برائحــة العز والفخفخة قد أنستنى حتى لحظات العناء حين كان أبى يرهن الارض قيراطا وراء قيراط لكى يسدد لى مصاريفى ولكى انفقه على مظهرى بين أولاد الذوات ، بل لعلنى كنت لا أتذكر مثل هذا العناء بدافع الحنين اليه وانما ليبرر لى الانخراط فى العز..وكانت المبالغ الرهيبة التى كان أبى يعجز عن دفعها كرسوم لسنوات الدراسة تصيبنى بمتعة خارقة حين انفقهــــــا فى سهرة فى احـدى دور الملاهى الباريسية ..

ولكن اشهد ان هذا لم يدم طويلا .. ف .. فجأة صارت كل الاشياء بلا معنى ،وصارت أحضان العطر والفرش الوردية عجفاء قاحلة تماما .

ثم بدأ العذاب المر . نعم ، لم يكن شهر العسل عسلا كله ، ولم يكن شهرا . قالوا لابد من العودة الى الوطن ، ولم يكن ثمة ما يشدنى الى الوطن ، ولا ثمة ما يغريني على البقاء ، لم يعد هناك طعم للأشياء ولم يعد لدى احساس بالزمان أو المكان . مع ذلك عدت معهم الى أرض الوطن . عدت ولم تنته اجازتى ، بل الحق اننى لا أذكر ان كانت قد انتهت أم لا ؟ فالواقع اننى لم أكتب ورقة أطلب فيها أجازة ولم اتحدث فى هذا الشأن مع اى احد .. فهناك دائما من يقوم عنى بكل هذه الاشياء التافهة .



مضيت فى شوارع المدينة امرق بالعربة الفورد هنا وهنـــاك . تذكرت اننا فى بداية شهر جديد فطاب لى أن ازور مقر عملى وأقبض

مرتبى . كان على ضخامته بالنسبة لى عاطلا من أى شىء يبعث على الفرح والبهجة . وحين أمسكته لم تجرؤ يدى على وضعه فى المحفظة بل وضعته مكورا فى جيب الصديرى بلا اهتمام شأنه شأن « مصروف اليد » الذى تعودت على صرفه منذ ان تزوجت خزينة الباشا . قفزت الى العربة وأمرت السائق ان يعاود السير بى حول المدينة . كنت دائخا ، مظلم المزاج ، مقهورا ، لا أعرف بالضبط ما الذى أفكر فيه او احس به ، لعل الازمة الحقيقية هى ان ثمة احساس او فكر لم يعد باقيا فى نفسى لكن ثمة شيئا غامضا وعميقا كان يؤرقنى ويزيد من رغبتى فى البكاء بصوت عال محمـــوم تسمعه المدينة كلها ..

كانت شوارع المدينة ساكنة سكونا خادعا والمشاة يتسكعون على الارصفة كأنهم بقايا طين عادم أو طحالب ألقت بها أمواج العربات على الشاطئين .

كان منظرهم يثير فى الفزع بقدر ما يثير الرثاء . ولا أدرى لماذا فى هذه اللحظة تلقى الظروف بأحد أصدقائى القدامى فى الطريق ، اذ ما كاد يعبر الشارع الى الضفة الاخرى حتى عرفت وتأكدت انه « جعفر » الشاب الوطنى العظيم ، الذى كان من الم‌ع طلاب مصر فى ذلك الحين وكانت لديه قدرة باهرة على تهييج المشاعر وجعل المدارس كلها تدلق بطونهـــا فى الشوارع فى لحظات . نعم ، كان باشارة بسيطة يحرك الشارع المصرى ويجعله كما يقولون « يضرب يقلب » فيشق الزلزال قلب جنود الاحتلال وجدران القصر الملكى وستحيل « قصر الدوبارة » الى كوخ متهالك فى مهب ريح عاتية ففى الحال تتغير صيغة المثل السائر القائل أن مصر تحكم من قصر الدوبارة ، فتصير فى الافواه المبتهجة « مصر تحكم بفتلة دوبارة » وهذه الفتلة يمكن قطعها فى لمح البصر اذا ما تململ الشعب ..

أتذكر الآن ما كنت أؤمن به وأورده : مصيبة هذا الشعب انه لا يتحرك الا اذا تقدم من يشعل الفتيل .. بغيره ينخفض منسوب الثورة فى النفوس كما ينخفض منسوب المياه فى النيل .. غير انها نفوس لا تفقد الخصوبة أبدا . تراها فيخيل اليك انها جفت ولم يعد فيهـــا رمق .. فاذا بها فجأة وقد فاض بها الكيل تصبح طوفانا مخيفا . وقد علمونا فى المدرسة قوله « هيرودوت » ان مصر هبة النيل فاذا كان يقصد أن خيرات مصر كلها أينعها النيل فقد فاته

أن يصرح به تصريحا كاملا بأن مصر ابنة النيل ورثت عنه الغضب حين يفيض ويغرق البلاد بالطوفان كما ورثت عنه الهدوء والاستكانة فى مجرى الشعور ريثما تتفتح الورود وينضج الثمر .

الواقع اننى لا اعرف ان كانت هذه هى آرائى التابعة من ذاتى أم انها أصداء لآراء « جعفر » وبقـــايا تعاليمه القديمة . تابعت « جعفـر » فـاذا به يسير على الرصيف وسط عشرات من لابسى العفاريت والقمصان والجلاليب . لكنه هذه المرة كان الشارع هو الذى يحركه وبلا هدف كما كان يبدو . أين شبابه ووسامته وفتوته ؟ أين تفتحه وتفاؤله · انه يمشى كثـوب عصرته يد قـوية ·· يتطـوح دائما ، وتحت ابطه جـريدة مطـوية على كتـــاب افرنجى لعله رواية لجوركى او مسرحية لابسن ولعله كتاب « روح الثورات » لجوستاف لوبون ولعله القاموس الذى لم يكن يفـــارقه يمده بألفـــاظ انجليزية وحادة تصلح لاقلاق بالهم عند استخدامها فى الهتافات .. الملعون كان موهوبا فى توفيق الفاظ انجليزية عريقة مع الفاظ عربية شائعة فى أبيات شعرية وتغرى بالحفظ والترديد وتشكل ايقاعا حماسيا ثائرا . الى أين يذهب هذا الولد العظيم ؟ وما هى أخباره ؟ أيكون قد آل به الحال الى وظيفة بسيطة فى الميرى ؟ ..

رجوت السائق ان يتمهل قليلا ويحاذى الرصيف . كنت أريد ان انادى « جعفر » وأسلم عليه واساله عن اخباره . لكنه كان قد أبتعد . فأمرت بايقاف العربة ونزلت واخبرت السائق اننى سوف اشترى طلبا واعود ..



مضيت وراء جعفر ثم تذكرت فجأة انه امضى بالسجن شهورا طويلة ، وانه حضر الامتحان النهائى مخفورا بالحديد وبالحرس . تذكرت ايضا ان مخبرى السراى ومباحث قصر الدوبارة يلاحقونه فى كل مكان . تعلقت بقدمى صـــخرة حقيرة منعتنى عن السير . رحت أتفرج على الفتارين ولا تعلق نظرتى بشىء مما يعرض فيهـــا ذلك ان عينى كانت لا تود ان يهرب منها « جعفر » فكانت تلاحقه وتنزعج كلما غاص فى مجموعة متكاثفة . ثم اذا بى أمشى من جديد . رايته يميل نحو مقهى كبير بشارع فؤاد ثم يرمى جريدته وكتابه على ترابيزة مطلة على الشارع ثم يتهاوى جالسا . حياه أكثر من واحد . ولم يكن امامه فرصة ليبدأ بالتحية أحدا . هبط عليه

الجرسون بالشيشة وفنجان القهوة وموكب من التهليل والترحيب الحلو .. كنت لحظـة ذاك أحاول اعتقـــال عينى وسجنهما فى الفترينة المجاورة . لحظتها خجلت من رائحة العطر التى تتصاعد من منديل فى جيب سترتى فوق الصدر بل كرهت المنديل نفسه ثم كرهت السترة نفسها وفى الحـــال عاودنى ذلك الاكلان فى احساسى وأحسست به كالعادة يختنق بخاتم الزواج الضيق .. ثم صعد الاختناق الى صدرى ثم كان لابد أن أجلس .

حين انحرفت الى نفس المقهى كانت النظارة السوداء على عينى قد امتلأت بضباب كثيف . كدت أتعثر ، ذلك اننى اتجهت مباشرة الى ترابيزة « جعفر » ثم غيرت رأيى فى الحال فسرت الى بعيد قبل أن تتحرك قدماى معى . ثم تكرر ذلك أمام عدة ترابيزات مجاورة ..

وحين وقع اختيـــــــارى على ترابيزة منزوية فى ركن قصى جاءنى احساس أخضر ذو رائحة نفاذة كنت أحســـه وأنا طالب صغير عندما تضعنى الصدفة فجأة فى مواجهة النحاس باشا أو سعد زغلول أو طه حسين أو حافظ ابراهيم أو أحد الزعماء المرموقين . وأحسست بالغيرة من « جعفر » على الرغم من سوء حالته . كذلك احسست بضيق لا حد له حين انحنى الجرسون أمامى وخيل لى انه يبالغ فى احترامى فأخذت أبرطم بكلمات لا أفهم لها معنى . ولما وضع فنجان القهوة واستدار لينصرف اعتذرت له عما يكون قد بدر منى من شخط أو نطر أو تكشير. فكأننى أعطيته الاذن بأن يمعن فىتبجيلى حتى يفور دمى . الا أننى تعلمت تعليق الابتسامة على الشفتين وفوق الوجه لفترات طويلة دون أن تفقد بريقها . وقد تكفلت هذه الابتســامة مع الســيجارة الافرنجية التى اشعلتهـا له بألا يغادر الجرسون رحابى ..

سألته عن اسم هذا الشخص الذى يجلس هناك اذ اننى أتشابه عليه ، فانبرى يحكى كما يحكى شاعر الربابة عن الزناتى خليفة وأبى زيد الهلالى والخضر عليه السلام ، كأنه هو الذى قام بتأليف هذه الشخصية وخلق حياتها وأحداثها ولذا فهو يعلم كل صغيرة وكبيرة عنها ...

***

قال الجرسون :

ـ ألا تعرفه يا بك ؟ انه الاستاذ « جعفر » الذى يعاديه الانجليز

ويضطهده الملك . رجل يا بك ما أنجبته ولادة .. سجنوه وعذبوه ثم فصلوه من المدرسة في سنة التخرج .. وأخذوا أخوته الفلاحين الى السخرة واحدا واحدا .. حتى أبوه العجوز الذى بقى وحيدا فى البلد يبكى حاله ، ظلوا يأخذونه ويتركونه حتى لم يعد فيه نفس .. وماتت زوجته حزنا على ما أصابها وأصاب البلاد من حزن . أما هو فقد صرف كل مدخراته على الاطبـــاء والاجزاخنجية . وقد سافر الى بلدتهم فلم يجد هناك سنبلة توحد الله ، ظل حتى دفن أباه ، وكان بوده لو يدفن نفسه هربا من لحظـــات اللوم . فالغريب يا سعادة البيك انه لم يسلم من لوم الناس هناك بل ان فيهم من اعتبره مجرما فى حق أبيه . الناس كما لا يخفاك لا ينقمون على شيء قدر نقمتهم على الابن الخائب . أما الابن الذى يكلف أباه دم قلبه ثم يتسبب فى ترحيل اخوته الى حيث لا يعود المرتحلون ثم يودى بحياة أمه وأبيه فانه ملعون فى الدارين .. ولولا بقية من حياة الاستاذ وأدبه وحلاوة طبعه ولسانه لرجموه بالطوب حتى يموت ...

سألت الجرسون وكأننى لم أعرف جعفر فى يوم من الايام :

ــ وأين يعمل هذا الاستاذ ؟

قال الجرسون فى حماس :

ــ انه يعمل الآن كاتبا فى مطحن غلال . ولا يجلس فى أى مكان سوى هنا . ولكنه يا سعادة البك تحدث له ، اللهم احفظنا ، حالات غريبة لا ندرى متى يشفيه الله منها .. ولا يريد أن يسمع نصيحتى .. والله يا سعادة البك لقد دفعت من جيبى نقودا لاحد أولياء الله وجئت به هنا شخصيا ليعرف علاج حالته . لكن الاستاذ يربت على كتفه ويطلب له القهوة ثم يودعــه مبتسما وينصرف الى الجـريدة أو الكتاب ..

لكن ما هى الحالة التى قلت انها تعتريه ؟ ..

قال بألم :

ــ انه فجأة يرى ببصره على واحد من السائرين فى الشارع يكون عادة فلاحا ثم ينهض واقفا محملقا بعينيه فى فرح طفولى ، ثم ينادى بصوت عال : يا مصطفى أو .. يا سعد .. أو يا نحاس .. وكثير ما يعاود النداء بصوت أعلى ، وبالاسم الكامل قائلا : يا مصطفى كامل .. يا ســـــعد زغلول .. يا نحاس .. حينئذ يتصعب الجالسون .. يمصمصون الشفاة . أما الزبائن الجدد من الشباب

حاملى الجرائد والكتب فيهمسون قائلين فى عبارة لا أدرى ماذا يقصدون بها ، هوس سياسى .. هوس سياسى ؟ .. فيشيح عنهم زبائن المقهى ويرمقونهم بغضب وقد يشتبك الجميع فى عراك . أما هو فتراه منشغلا عن هذا كله .. ويروح يكرر النداء ثم ينسلخ عن الترابيزة ويهرول فى الشارع خلف الشخص . وبعد برهة طويلة يعود وهو يبتسم للجميع فى مرح يدلق فى صدرى أباريق المرارة ويردد قائلا للجالسين كأنهم أفراد عائلته « ليس هو .. اتضح انه ليس هو .. اتضح انه ليس هو .. ولكنه يبدو أنه هو » وسواء كان الجالسون من أصدقائه أم من الزوار الجـدد فانهم عادة يرددون فى نفس واحد : « هو من ؟ » فيقول لهم ببساطة شديدة ، فيما يعـود لجلسته دون أن تختفى ابتسـامته : « ليس مصطفى كامل .. ليس سعد زغلول .. ليس النحـاس » وهنـا تتوارى الابتسامات الساخرة خلف الجـرائد أو الاكف المشرعة بالسجائر ولا يخلو الموقف من واحـد سليط اللسـان تحزقه نكتة سمجة . غير ان الاستاذ يبتسم له فى حب كما تفرح بطفلك حين يشتمك لاول مرة ويعيد ما سبق ان أعاده مرات ومرات : « الانسان يجب أن يتعرف على اخوته .. ان أخى مصطفى كامل وأخى سعد زغلول وأخى النحاس أخذتهم السلطة منذ سنوات ولم يرجعوا .. واننى أراهم فى السائرين فيخيل الى أنهم هم .. فأناديهم .. فلا أجد الا ناسا غرباء وان كانوا يشبهونهم فى كل شىء » وحينئذ يا سعادة البك يدرك الجالسون انه مجنون بالزعماء . وهم لا يعرفون ان اخوته الذين أخذتهم السلطة للسخرة ولم يرجعوا اسمهم بالفعل مصطفى كامل وسعد زغلول والنحاس .. أبوهم أسـماهم هكذا فى دفاتر الحكومة منذ أن ولدوا ، فهذه عادة المصريين يا سعادة البك كمـا تعرف ..



على الرغم من شـلالات الالم التى راحت تتدفق فى صدرى أحسـست بشىء كالبهجـة يشرق فى نفسى .. زين لى أن أنتقـل الى ترابيزة « جعفر » واكشف له عن نفسى شيئا فشيئا ، أذكره بأيام « المعاهدة » ففى الحال سيهتف باسمى من تلقاء نفسه وربما يعلن على الملأ أننى كنت أحد اثنين متخصصين فى حمله على الاكتاف فى كل مظاهرة ..

حاسبت الجرسون وقمت لهـذا الفـرض أحاول السيطرة على خطواتى . لكننى ما ان وقفت أمامه حتى شعرت بالعرى واشمئزاز أنفى من رائحة عطرى .. أما هو فقد نظر الى نظرة سريعة ثم دفن عينيه فى الجريدة وكان واضحا انه يتحاشانى ليس لانه عرف شخصى وانما لانه ينفر من رائحة عطـــــرى ومن البذلة والمنشة ذات اليد العاج ، ودبوس الكرافت الذهبى . ودارت بى الارض وغرقت فى أمواج متلاطمة من الصقيع . قلت كمــــا يهتف الفريق بطيف بعيد يتهادى على صفحة الموج :

ـ ازيك يا جعفر .. مساء الخير ..

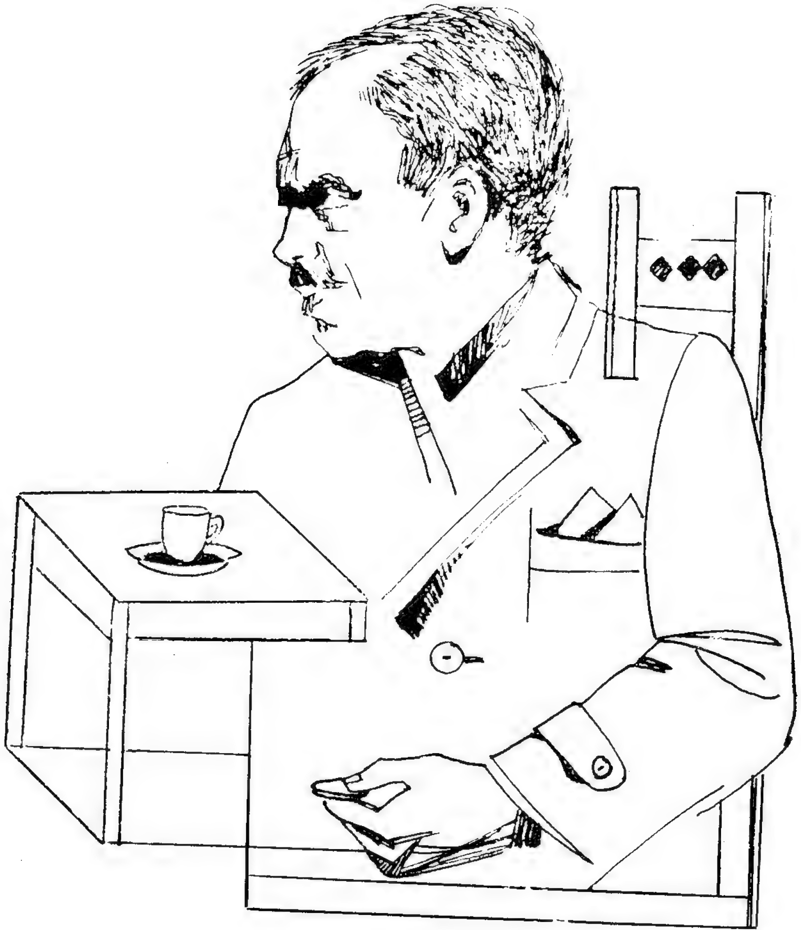
فرفع رأسه عن الجريدة وأومأ فى ابتسامة مهذبة وأدب شديد :

ـ مساء النور يا سعادة البيه .. أهلا يا أفندم ...

ثم دفن رأسه فى الجريدة .. فاشتعلت النار فى أذنى واستدرت عائدا والمطارق تنهال على رأسى وأنفى يســـاقط فى حلقى قطرات مالحة ومنشتى تذب الهواء فى غضب وحنين . وأحسست ان ملف القضية يهبط من عل فوق رأسى وينفرط ويتبعثر وتطويه العجلات والاقدام . ولم أكن فكرت فيمن انتدبه للحكم فيها .. ولم أكن قد فكرت فى كيفية الاعتذار .. ثم اننى ضللت الطريق الى العربة .

★ سنة ١٩٧٢

الحذاء



الحذاء

ـ ا ـ

ضرب ماسح الأحذية ظهر الصندوق بظهر الفرشاة ، وانتظر . ظل الاستاذ « ميشو » مستمرا فى تصفح الجريدة ، منهمكا ، عاقدا ما بين حاجبيه ، يتغضن وجهه المستطيل الشاحب ، يمط شفتيه ويفتحهما عن أسنان صفراء لا تليق بأفنـدى محترم مثله ، يشـد الانفاس من السيجارة التى بلا « فلتر » يبحلق فى سـطور ما ، يمصمص شفتيه ، يشد النفس ، بعصبية شديدة يزيح الصفحة ثم يطويها الى غيرها .

تذكر ماسح الاحذية أنه لو طاوع نفسه على الفرجة فلن ينتهى فضرب الصندوق مرة ثانية أعلى من الاول ، ثم ثالثة أعلى ، فأعلى . ازاح الاستاذ « ميشو » صفحة الجريدة عن وجهه ونظر الى ماسح الاحذية فى غضب مكتوم ، وظل برهة يسلقه بنظرته النارية .

احمر وجه ماسح الاحذية وارتبك ، أشار الى القدم الطليقة ، تمتم :

ـ عدم المؤاخذة يا سعادة البيه .

لكن الاستاذ « ميشو » لم يعطه القدم الاخرى ، بل ظل يسلقه بنفس النظرة ، ثم لوى شفتيه فى اشمئزاز وهو يضرب الصندوق ببوز الحذاء . على أنه كظم غيظه وأنزل قدمه عن الصندوق ووضع الاخرى مكانها واستأنف قراءة الجريدة .

اندفع ماسح الاحذية يشبع الحذاء صبغا وتفريشا بعد أن تعب تعبا شديدا فى تنظيفه أولا من الاوحال المتكدسة فـوقه : وكان يتلفت حواليه محمر الاذنين تكاد العمامة الملوكية البيضـاء تتطاير عن دماغه .

ـ ب ـ

كان الصبح لحظتها قد شب عن الطوق ودخل فى الضحى المتعجل،

و « مقهى وبار الميدان » تعج بالزبائن من مختلف الاشـكال والالوان والاعمار ..

لوى ماسح الاحذية شـفتيه فى قرف ، ضرب الصندوق بظهر الفرشاة ولكن فى رقة شديدة ، ضربة لا تكاد تسمع ، ثم انتظر . الاستاذ « ميشو » كان يضع جريدة ويتناول أخرى مطلقا زفرة ، فرد هذه الاخرى وأشعل سيجارة ، رمى بعينيه فوق الصحيفة فى جولة سريعة . نظر الى ماسح الاحذية فى استنكار .

مد ماسح الاحذية رأسه ناحية القدم الاخرى طالبا اياها . انتظر الاستاذ « ميشو » حتى انتهى من طوى الجريدة على الصـفحة الثانية ، ثم بهدوء شديد أنزل قدمه عن الصندوق ، وببطء أشد وضع القدم الاخرى وراح يقرأ .

كانت أعجب قراءة شاهدها ماسح الاحذية فى حياته ، فالاستاذ « ميشو » يقرأ سطرا وربما كلمة ثم يتطلع حواليه متفرسا فى وجوه الحضور كأنما يستكمل القراءة على وجوههم ، الا أن القرف الذى يرفع به وجهه عن الجريدة يرتد اليها مضاعفا .

ـ ج ـ

على الناصية كان صاحب المقهى يجلس مع ولديه ، ينظر فى بلاهة الى الجالسين وتبدو على وجهه السعادة من فرط ما يثيره الجالسون من ضجيج . وكان يتابع حركة ماسح الاحذية بدون تركيز ، ولكن ربما لفت نظره أن ماسح الاحذية كان يسرح فى شرود طويل تروح يده وتجىء عشرات المرات . الخاطر برق فى ذهنه فجأة : لهذا السبب تتقطع الثياب دائما من تحت الابط ، وهى ثياب تدفع المقهى ثمنها ، لا لشىء الا من أجل هذه اللافتة المنسوجة على الصدر باسم المقهى ، ماذا يفعله هو حتى يحصل منهم على ثمن هذه الثياب ، صحيح أنهم يقومون بتنظيف المقهى وقضاء حاجاته دون مقابل ولكنهم يحصلون على البقشيشات من الزبائن وما أكثرها ، ثم قرر أن يرجىء التفكير فى هذا الامر لوقت آخر .

ـ د ـ

ضرب ماسح الاحذية ظهر الصندوق بظهر الفرشاة ، رفع الاستاذ « ميشو » قدمه ووضع الاخرى ، وأطلق نظراته فى ساحة المقهى وقد تعلقت الجريدة بين يديه ، فبدا كأنه يرى المقهى لاول مرة ، وبدا أيضا كأنه يصحو لتوه من نوم ثقيل طويل .

تأمل ماسح الاحذية عينى « ميشو » فوجدهما حمراوين بارزتين يشع منهما بريق غاضب لافح . كانت نظرة الاستاذ « ميشو » قد وقعت على شابين دخلا من الباب الجانبى الى الساحة الخارجية ،وبعد تلكؤ مريب اتخذا مجلسهما على ترابيزة قريبة من ترابيزة « ميشو »، فكاد « ميشو » يترك ترابيزته ويبتعد الى ترابيزة أخرى ، ثم تمتم :

ـ مقهى نجس ... ملىء بالمخبرين واللصوص والادعياء !

وقال ماسح الاحذية :

ـ نعم ؟

قال « ميشو » بغضب :

ـ هش .

أطلقها مع حركة من يده كأنما يغلق بها فم ماسح الاحذية ، الذى ابتلع غصته وقال لنفسه مبرطما :

ـ « ليتنى ما طاوعت ولد عمى .. انها مليئة بالمجانين » .

وضرب ظهر الصندوق بظهر الفرشاة . بسرعة أنزل « ميشو » قدمه ووضع الاخرى .

قال ماسح الاحذية :

ـ خلاص يابيه .

قال « ميشو » وهو ينظر فى الحذاء باسترابة :

ـ طيب .. خلاص خلاص .

جمع ماسح الاحذية أشياءه وحمل صندوقه ووقف منتظرا . نظر اليه « ميشو » بغضب وهتف مشوحا :

ـ مفيش فكة .. بعدين بعدين .. يلا غور بقى .

انصرف ماسح الاحذية وهو يوقف رعشة شفته السفلى بأسنانه .

كاد صاحب المقهى يقـــول : « فيه ايه » لولا أن ماسح الاحذية انصرف فى هدوء ، و « ميشو » عاد الى صحيفته كأن شيئا لم يكن . تمتم صاحب المقهى « لا ينقصنا وجع الدماغ » .

قال ابنه الاكبر :

ـ ماذا فعل الولد بالاستاذ ؟

قال صاحب المقهى :

ـ كلاهما ناقص عقل !

صاح الابن الاصغر باسما :

ـ كيف ؟

ـ لوح من « اللطزانة » يمسح الاحذية .. فمن أين له بالعقل ؟!

قال الابن الاكبر :

ـ والاستاذ ميشو ؟

شوح صاحب المقهى فى قرف :

ـ كاتب « مرسحى » .. رجل تياترو (وبرم أصابعه حول رأسه) فمن أين له بالعقل هو الآخر ؟!

قال الابن الاكبر :

ـ أنا لم أر له أى مسرحية .

قال الاصغر :

ـ أنا رأيته مرة فى التليفزيون .

قال صاحب المقهى :

ـ أنا لم أره فى أى داهية .

ثم أضاف مشوحا بعد برهة :

ـ داهية تلمهم جميعا .

ومسح المقهى بنظرات قلقة ..

كانت المقهى تشغى كعش الزنابير ، مجمـــوعات تتكلم وتتعارك وتتضاحك وتغنى وتسكر وتتهامس فى نفس الآن . باستثناء قلة من الزبائن ليس هناك أحد غير معروف لديه ، لكل منهم عنـده تاريخ حى لا يمحى من الذاكرة ، فعمر المقهى يجاوز نصف قرن ، وكان هو شابا صغيرا من أصل أرمنى حين تنازل له صاحب المقهى الاصلى عنها ، وكانت فى ذاك الزمن مجرد بار يؤمه التجار والاجانب والسماسرة والقوادون وبضاعتهم .. فلما أصبح هو صاحبها وسع

دائرة الرواد وأضاف الى البار مقهى واسعا ملأها بالكراسي الخيرزان، وقد تعلم من أولاد العرب ان الرزق يحب الخفية واللباقة والحركة ، فما ان رأى أحد الكتاب المشهورين يجلس ذات يوم على مقهاه حتى بالغ فى الترحيب به وأعلن ان كل ما يتناوله « الاستاذ » من مشروب طوال حياته ها هنا يقيد على حساب صاحب المقهى ، تقديرا منه لاهل القلم وأصحاب الرأى الحر الشريف الخ الخ مع انه لم يكن قد قرأ لهذا الكاتب أى حرف . ثم صارت المقهى تستقبل كل يوم اعدادا هائلة من أهل القلم ، ثم تبعهم أهل الفن ، ثم جاء أهل السياسة ، وشيئا فشيئا أصبحت المقهى أشـــبه بـ « حلة التورلى » ، تضم مجاميع مختلفة متناقضة ، من سياسيين قدامى بعضهم كان ناجحا والبعض الآخر لم يكن ، ومن أدباء وصحفيين لامعين وآخرين محبطين، وناشئين ويائسين ، وحزبيين وعقائديين وسياح صعاليك سذج وأبناء ريف متطلعين ..

أبدا لم يكن هذا ما يحلم به صاحب المقهى . لو علم ان الامور ستصل الى هذا الحد من الفوضى لما توسع هذا التوسع الذى لا يأتى بمصاريفه ، فكل هـؤلاء يجلسون بالساعات نظير مشروب واحـد بملاليم ، يطلبون معه خدمة ويتأمرون ، وكل مجموعة تعادى الاخرى عداءا سافرا حادا وبلا سبب مفهوم ، الاوسخ من هذا ـ يقول لنفسه ـ ان العداء داخل المجموعة الواحدة أكثر حدة وسفورا . نصف الرواد يتهم النصف الآخر بأنه عميل للمباحث ، وكل يوم والثانى ترتفع الاصوات والكراسى ، وتشج الرءوس وتنقلب المقهى الى حارة يسكنها الفتوات ، صدق أحد قدماء السياسة المتقاعدين على المقهى حين قال بأن الحياة قد فسدت الى الابد وأن ما يحدث هو نتيجة طبيعية لما سبق حدوثه ، حيث لم يعـــد الادب ولا السياسة ولا الفن ولا الرياضة أنشطة يقوم بها أولاد الناس من علية القوم ، انما دخلها الدهماء الذين لا يعرفون لهم رأسا من قدم ..

ولقد تعود صاحب المقهى ألا يقيم لهذه المعارك وزنا فهو يعرف أنها كلها تنبعث من منطلق شخصى ، وأن الاطراف المتعـــاركة ـ شأنها شأن أى عراك مصرى ـ سرعان ما تعود الى وضعها السابق بل انها قد تتصافى وتتصادق ويتضح انها اقارب وبلديات كل ذلك فى لحظة واحدة . ما يصيبه بالغم حقا هى الخســـائر التى كانت تصيبه من جراء مثل هذه المعارك الخرقاء ، لكنه كان يجد لذة خفية

وغامضة فى ترك الكراسى والترابيزات عرجاء ومقلقلة وفى حاجة اسلاح كثير ، ومن يعجبه الجلوس عليها هكذا فأهلا وسهلا ، ومن لا يعجبه فليرنا عرض أكتافه . فلم يره أحدهم هذا الامل ، فراح يتمادى فى تقليس الخدمة حتى لم يبق سوى خطوة واحدة بعدها يقوم الزبون ليحضر شايه بنفسه من الداخل وان أحضره من بيته يكون افضل . لم يعد يفرق بين مناضل قديم له تاريخ وبين مدع فسل من مدعى هذه الايام ، مع ذلك لم يكف عن عادته القديمة كلما تصادف وجود أحدهم أمام الاولاد اذ يندفع قائلا ان فلان بك من أعظم الشخصيات المصرية ، وأن علان أفندى له تاريخ مجيد فاقتدوا به يا أولاد ، وان سعادة الباشا فعل فى الاستعمار كذا وكيت ، أما الاستاذ فلان فلعلكم تعرفون انه أثار قضية كذا وكذا فى صحافتنا أيام ان كانت صحافة . لعله بمرور الزمن واتصال العشرة أدرك أن المسألة كلها كلام فى كلام ، وأن الدنيا تنقلب من حولهم رأسا على عقب وهم بكل هدوء وبرود يتقارعون الحجة بالحجة ويطلبون مكعبات الثلج باستمرار مع أن الثلج فى داخلهم جبال فوق جبال ، لهذا كان يندفع فجأة مبرطما لدى أى انفعال : « والله لابيعنها لاحدى الشركات واقطع دابركم من وسط البلد » . وكان ابنه الاكبر — الميال للبيع — يشوح فى وجهه صائحا : « جاءتك المائة باكو فلم توافق » ، فيحس الرجل بالخجل ويمسح المقهى بنظرات حانية .

واليوم كان يبدو عليه الهدوء ولذا كان مستعدا لمحاورة ولديه بمختلف الاساليب الملفوفة والمباشرة حتى يقنعهم بضرورة الرجوع عن البيع والابقاء على المقهى باعتبارها الوحيدة فى المنطقة ، مع تغيير طابعها ورفع تكاليفها الى مستويات تليق بأصحاب المكسب وتبعد عنهم هؤلاء المتكلمين الذين يقطعون النهار والليل بالمجان ، وكانت مخايل الحوار تلمع فى عينيه حين شد انتباهه ذلك الصياح المفاجىء . .

— و —

يقول الاستاذ « ميشو » :

— ساعة عشان انتظر سعادتك . . قلت لك شوية وأرجع . . فيها ايه . .

ويقول ماسح الاحذية :
ـ لمؤاخذة يابيه فيه ايه ؟
ـ مش انت اللى ماسح الجزمة ؟
ـ أنا ؟! .. أنا من غير مؤاخذة ماشفتكش خالص يابيه !
ـ باقول لكانت اللى مسحتها .
ـ والله والله العظيم يابيه ما مسحتها .
دقق صاحب المقهى فى ماسح الاحذية ، فلم يتيقن مما اذا كان هو الذى مسح أم غيره ؟! ذلك أن الذين يمسحون الاحذية فى مقهاه قد وصل عددهم مؤخرا الى عشر رجال ، كلهم متشابهون يلبسون الجلباب الازرق والعمـــــامة المملوكية وعلى صدورهم لافتة باسم المقهى ، لكنه قال مبتسما :
ـ خلاص يا أستاذ ميشو .. ما دام قال مش أنا يبقى مش هو .
ـ طيب .. مع السلامة .
وشوح بيده فى غيظ ولكن عينه حفلت بنظرة وعيد صارمة ، الامر الذى شد انتباه معظم الجماعات المتنـــاثرة حواليه كما شد انتباه صاحب المقهى فظل على جلسته كأنه يعلن انتماءه للموقف حتى ينتهى على خير ..
ما كاد ماسح الاحذية ينصرف حتى ظهر ماسح احذية آخر قادم من الخارج انتبه اليه « ميشو » فسحبه نحوه باشارة أصبع حاسمة، فجاء الولد مرتعبا وهو ينظر فى نفسه وفى الارض :
ـ خير يا سعادة البيه ؟
وكانت الفكة موجودة فى كف « ميشو » استعدادا لدفعها اليه اذا قال نعم أنا الذى مسحتها . لكن ماسح الاحذية نظر فى الحذاء فوجده لامعا جدا ، فوقف حائرا :
ـ خير يا سعادة البيه ؟
استشاط « ميشو » غضبا ، رمى بالفكة على الترابيزة :
ـ مش انت اللى ماسح الجزمة دى ؟
ـ أنا ؟ .. على الطلاق بالتلاتة ما شفتها !
هكذا نطق ماسح الاحذية كأنه يدافع عن نفسه ضد جريمة واضحة وضوح الشمس . فبلم الجميع وان ضحكوا فى نفس واحد مما أثار حرج اتنين : الاستاذ «ميشو» وصاحب المقهى ، الذى اعتدل احتراما وقال فى هدوء :

ــ فيه ايه بالظبط يا أستاذ ميشو ؟ .. عايز اللى مسح الجزمة ليه ؟

تبسم الاستاذ « ميشو » بأسف :

ــ عايز أديله حسابه .

ــ بسـيطة .. زمانه جاى .. واذا كنت مستعجل سيب لنا الفلوس أو ماتسيبهاش واحنا ندفعها له ..

لسبب ما لا يدريه « ميشو » بالضبط اغتاظ كأن ثعبانا لدغه فقال :

ــ لا تدفع لى ولا أدفع لك .. متشكر قوى .

وأشاح بوجهه عن صاحب المقهى فى احتقار . راحت الابتسامة الخجلى تتراقص على شفتى صاحب المقهى . وهنـا ارتفع صياح الاستاذ « ميشو » دفعة واحدة :

ــ تعال يا جدع انت .

كان ماسح الاحذية قد أتى ، فاقترب من « ميشو » وهو يرتجف :

ــ نعم ياسعادة البيه ؟

ــ نعمة ترفصك .. باشتغل عندك أنا ؟ .. بتبقشش على ؟ ..

هذا الولد أكثر السابقين جرأة وأخشنهم صوتا :

ــ ايه فيه ايه بتزعق ليه ؟

ــ مش انت اللى ماسح الجزمة دى ؟

ــ ولا مسحت لك ولا شفتك .. انت حترمى بلاك على ؟!

ــ طب امشى يا قليل الادب يا سافل .

ــ باقول لك ايه .. اوعى تزيد عن حدك .

ــ عيب يا ولد .. ادخل جوه يللا .

هكذا صاح صاحب المقهى كما يصيح الانسان فى كلبه ، فانسحب ماسح الاحذية وغاب فى المقهى . و .. اعتدلت كل الجماعات فصوبت وجوهها تجاه الاستاذ « ميشو » وقد بدا عليها تحفز شرير ..

أحس « ميشو » بالعيون تتقافز عليه وتكاد تثقب صدره لتنزل الى داخله . تذرع بصلابة فرعونية ، صمم على الا يعيرهم جميعا أدنى التفات ، وان يثبت لهم أنه ليس مجنونا ، وان هنـاك فى هؤلاء الاوغاد من مسح له حذاءه ، وانه لا يقصد سوى تهزىء الولد الماسح واعطائه حسابه مع درس فى الاخلاق يمنعه من هذا السلوك مع الناس المحترمين مرة أخرى ..

ها هو ذا يرفع ذراعه بهدوء هذه المرة صائحا برقة :
ــ من فضلك .. من فضلك .
فأقبل ماسح الاحذية العجوز نحوه يبتسم ويتهيأ للجلوس والمسح . وما كاد يصل الى « ميشو » حتى وضع الصندوق وجلس وأخرج الفرشاة وتناول قدم الاستاذ « ميشو » فارتفعت عاصفة من الضحك زلزلت الارض لكن الاستاذ « ميشو » لم يتزلزل ، انما سحب قدمه من يد ماسح الاحذية العجوز برفق قائلا مع محاولة ابتسامة :
ــ قال يعنى مش انت اللى ماسحها من دقايق !
اختفت الابتسامة الازلية عن وجه الرجل . بكل جد صاح :
ــ أنا يابيه ؟ .. استغفر الله .. استغفر الله ! ..
وراح ينظر الى الحذاء فى تشكك واضح ، ويلوى شفتيه ، ويلم اشياءه بسرعة ويبتعد :
ــ لا حول ولا قوة الا بالله .. يا جايين يكفيكم شر القاعدين .
ارتفعت عاصـــــفة الضحك من جديد أعلى مما كانت مصحوبة بحركات دبدبة بالاقدام فى الارض وخبط للجباه بالاكف ، انتعشت المقهى فجأة انتعاشة لم تشهدها من عشرات السنين ، راح العمـــال وجاءوا .. بالاكواب والكئوس والاطباق فى زأطة وبشاشة ، تصبب العرق من جبين « ميشو » حتى خيل لمن يراه أنه سوف يذوب بعد دقائق ..
لكنه بصلابة وقوة وقف هذه المرة فبدا طويلا كعامود من الدخان ، وصاح مثل أولاد الليل المخربشين فى أفلام الفتوات :
ــ تعا .. لا .. نهارك فل .. انت فين من زمان ؟
اقترب منه ماسح الاحذية يتعثر فى خوف وفى وجل كحيوان أليف مدهوش . وقف أمام « ميشو » صامتا وصدره يعلو ويهبط كأنه يقول : « خير يارب » . أمسكه « ميشو » من أذنه فقرصها بعنف ، فصاح الولد متألما ودمعت عيناه . قال « ميشو » بحزم :
ــ اعترف يا كلب !
فبكى الولد من شدة الالم ، ونظر حواليه مرتعبا ، فرأى الجميع لدهشته يضحكون ويغمزون له بشفاههم غمزات طمأنه ، فقال ماسح الاحذية :
ــ فيه حاجة يابيه ؟
تراجع ذقن « ميشو » والتصق بعنقه :
ــ آه .. يا ولد .. على الكلام ده ؟

ـ وطربة اللى ماتوا لى ما أعرف حاجة .
ـ يعنى انت ما مسحتش الجزمة دى ؟
ـ الهى أنطس فى نظرى ما شفتك .. دانا لسه جاى من دارنا دلوقت أهه حالا .. لا عملت حسنة ولا سيئة .. خير يارب .

لاول مرة يتأثر صاحب المقهى ويدب الى نفسه الشك فى هذه المسألة من أساسها . فأبدا لا يمكن أن تكون المسالة مجرد رغبة « ميشو » فى دفع الحساب ، لابد أن فى الامر شيئا آخر لا يريد أن يتضح .

نهض ومضى فدخل المقهى . أصدر أوامره بجمع كل الاولاد الذين يلبسون ثياب المقهى ويعملون فى مسح أحذيتها ، ثم عاد فأمر كل من تحت أمرته بالدخول . ثم جلس ينظر فى المجاميع التى بدأ يكثر تقارب رءوسها ويعلو همسها . خيم هدوء مزيف تحس وراءه دوى العواصف . ان هى الا برهة حتى جاء ماسح الاحذية العجوز وخلفه طابور مكون من ثمان رجال كلهم يلبسون ثياب المقهى ويحملون على صدورهم لافتاتها ، لما اقترب من صاحب المقهى أشار لهم فأرتصوا بجوار بعضهم . بنظرة واحدة عدهم صاحب المقهى وصاح :
ـ ناقصين واحد .
هز العجوز رأسه :
ـ أيوه .. الجدع المستجد .. كان هنا وجاى .
صاح وقد « تزربن » :
ـ مفيش جاى !
ـ بعت أربعة رجاله يجيبوه من تحت الارض !

وكانت الضحكات قد استأنفت الدوى حين راح « ميشو » يرقب وجوه ماسحى الاحذية عاقدا ما بين حاجبيه فى اهتمام عظيم ، بل انه وقف واقترب منهم وأخذ يتفرس فى وجوههم واحد بعد واحد . ثم صفق كفا على كف واتجه الى ترابيزته يكاد ينفجر من الغيظ والحيرة . تهالك جالسا . لم يكن صاحب المقهى أقل منه غيظا أو حيرة ، صاح فى عصبية قاتلة :
ـ لقيته فيهم يا سعادة البيه ؟
مط « ميشو » شفتيه فى أسف وغموض ، ولم ينطق . فصرخ صاحب المقهى :
ـ هاتوا الولد المستجد حالا .

ثم نفخ وظهر عليه التوتر العظيم . ثم خيم الهـدوء برهة وجيزة كأنما هو الهدوء الذى يقولون أنه يسبق العاصفة . وكانت ايمـــا عاصفة : جعير وصياح ملتاع يتصاعد من أعماق الشارع الخلفى ، رجل يبكى بأعلى صوت ويصيح بألفاظ غامضة . ما لبث الصياح الباكى ان اقترب أكثر فأكثر ثم اندفعت سحابة قاتمة ، قوامهـــا ثلاثة رجال يمسكون ماسح الاحذية بكل قسوة ، وكان يصيح باكيا من أعماق أعماقه :

ـ وكتاب الله ما مسحت له .. وكتاب الله ما شفته .. أحلف على المصحف يا خلق هوه .. أحلف على البخارى .. دانا راجل أبو عيال وغلبان ! .. اهىء اهىء ا .. هىء !!

تراجعت الضحكات تماما ولمعت بعض الدموع فى بعض العيون ، حتى عين « ميشو » نفسها لمعت فيها الدموع بل وتساقطت على خديه ، بصوت متحشرج بالبكاء :

ـ مش انت يا ابنى اللى مسحت لى الجزمة دى !؟

ـ وكتاب الله ماشفتك ! .. أهىء .

ـ يا ابنى دانا ..

وسحب « ربع جنيه » ولوح به :

ـ عايز اديك حسابك .. خد .. خده كله .

ورماه له فى عدم اهتمام .

تبرأ الولد منه وهز يديه لكيلا يلمسه ، فسقط ربع الجنيه على الارض ، فابتعد الولد عنه صائحا :

ـ ماليش دعوة .. آخد فلوس عشان حاجة ماعملتهاش !؟

ـ يا ابنى بأمارة ما ...

ـ وكتاب الله ما شـــفتك .. أنا بينى وبينك ايه ... عملت فيك ايه !؟

ـ تحلف على المصحف ؟

هكذا صاح صاحب المقهى وهو يسدد الى عينيه مصحفا صغيرا كأنه المسدس ..

ـ أحلف !! ..

بحلق فيه صاحب المقهى وصفق كفا على كف وراح يتلفت حواليه:

ـ تبقى المسألة فيهـــا سر ! .. لا أنت مسحت له .. ولا انت مسحت له .. ولا انت مسحت له .. أمال مين اللى مسح له ؟ ..

يا ناس .. ياهوه ياللى قاعدين كلكم .. فيه حد فيكم شاف الاستاذ ميشو وهو بيمسح جزمته ؟ .. أنا شـــــخصيا شفته .. بعينى شفته ..

ارتفعت بعض الاصوات :

ــ وانا كمان ..

ــ وانا كمان ..

ــ وانا كمان !

ــ طيب حد شاف مين اللى كان بيمسح له ؟

فلم ينطق أحد .

ــ يبقى لازم عفريت !

هكذا قال صاحب المقهى .

فرد أحد الباشوات القدامى :

ــ نعم .. وعفريت من الدهماء لابد !

فاندفعت الضحكات لكن الموقف لم يفقد توتره . وقف « ميشو » رافعا يده صائحا :

ــ خلاص أنا تأكدت انه هو .. هو ده اللى مسح لى الجزمة .. عرفته . ثم أمسك الولد الاخير من خناقه وهزه بعنف ودفعه فانكفأ على الارض :

ــ بس مش قادر أفهم عمل كده ليه .. أنكر ليه ؟ .. يبقى لازم فيه سر .. تبقى مؤامرة .. أنا مش غبى .. أنا فاهم كويس قوى شغل التآمر العصرى يبقى شكله ايه .. وبناء عليه : الجزمة دى هى أرض المؤامرة .. فيها حاجة تستدعى الانكار وبهذا الاصرار العنيف .. اذن .. الجزمة دى لا تلزمنى .. أهه .

وخلع فردة رماها فى اتجاه صاحب المقهى وطابوره .. فاندفعت عاصفة من الرجال متقهقرة مدمرة فى طريقها أكوابا وترابيزات .

وخلع « ميشو » الفردة الثانية ورماها فى اتجاه المجاميع الاخرى، فكأنما كانوا على أهبة ، اندفعت عشرات الاجساد متقهقرة ، فوقع ناس وديس فوقهم بالاقدام وارتفع الصراخ الوحشى الخائف المجنون. انزوا جميعهم فى ركنين بعيدين مثل كتاكيت فاجأهم ثعبـــــان خرافى . أما « ميشو » ــ لدهشة الجميع ــ فقد اندفع يهرول ــ حافيا ــ فى اتجاه الشارع العمومى صائحا :

ـ تاكسى .. تاكسى ..

ثم اختفى فى الزحام .

ـ ز ـ

كأنما انهارت عمارة كبيرة الى كومتين كل منها تقبع فى ركن قصى يرتعب ، وبينهما مساحة تمتلىء بترابيزات مائلة وكراسى منقلبة وهشيم أكواب ـ وحذاء .

بعد برهة رفع صاحب المقهى وجهه فلم يجد أحدا على الاطلاق سواه فأخذ يجر ســـاقيه حتى دخل المقهى .. وأمسك بسماعة التليفون .

★ أغسطس سنة ١٩٧٧

التحرر من الثوب القديم



التحرر من الثوب القديم

في البروفة الاولى أعطيت الترزى ثلاثة جنيهات . وداخلني قليل من الندم لانني اخترت هذه التفصيلة المودرن جدا . وفي البروفة الثانية جنيهين .. وابديت كثيرا من الملاحظات التى لم أكن أعرف لها معنى . ولكن الترزى ابتسم وافهمنى ان العبرة بالنتيجة النهائية واننى يجب ان اكون مطمئنا . ويوم الاستلام وقعت له على كمبيالات عشر قيمة كل منها جنيهان على عشرة اشهر . ثم عدت بها الى البيت مسرعا . وكان فى نيتى أن أؤجل ارتداءها حتى أشترى لها قميصا وحزاما . وكرافت وحذاء . ولكننى حينما نمت على أذنى فى الليل بدا لى أن ذلك مستحيلا واننى لن استطيع شراء شيء الا بعد أن انتهى من دفع هذه الاقساط .

وفى الصباح ارتديتها . كان فى نيتى أن اجربها فقط (ولا أعرف لماذا قلت ذلك لنفسى بصوت عال) لكننى حينما انتصبت واقفا أمام المرآة لم أر الحذاء ولا ياقة القميص ولا الكرافت لم أر الا بذلة أنيقة ومودرن بشكل زاعق . ورحت وجئت واستدرت أمام المرآة عشرات المرات وجاءت زوجتى وتفرجت ولوت شفتها السفلى وابتسمت . وسألتها عن رأيها فهزت كتفيها ولم تقل شيئا : اعدت عليها السؤال فقالت اننى صرت « ولا بتوع السيما » — فلم أعرف ان كان ذلك اعجابا أو سخرية ثم اننى لم أحاول معرفة ذلك . انما اصطحبت حقيبتى وتهيأت للخروج . ولامر ما بدا لى ان البذلة واسعة على واننى أبدو كأننى استعرتها لاقضى بها مهمة ، أخذت أنظر الى نفسى خلسة . سقطت نظرتى على فتحة البنطلون «الشارلستون» فاستسخفتها واستغربت كيف كانت تبدو لى على أجساد الآخرين — انيقة وغير مستهجنة .

جاء طفلى واعترض طريقى . وكان لابد ان احمله واحتضنه واقبله مثلما أفعل كل يوم قبل خروجى . ولكننى فى هذه اللحظة اكتشفت انه لم يكن فى يوم من الايام نظيفا مثل الاطفال الذين كنت أتخيلهم أثناء حمل زوجتى . مع ذلك فقد حملته . واجتهدت ان ابعده عن صدرى قدر الامكان لاتفادى وساخة ثيابه وقدميه . ثم خرجت .

الا اننى سرعان ما عدت وأغلقت الباب ووقفت شاردا كما لو اننى نسيت شيئا هاما . والحقيقة اننى كنت خجلا من الظهـــور فى الشارع وهو شعور ينتابنى دائما كلما ارتديت ثوبا جديدا . وقلت لنفسى . لابد من التغلب على هذا الشعور . ولا أعرف لماذا فتحت الدولاب من جديد . لعلنى فكرت فى خلعها . لكن زميلى « كارم » خرج من بين ملابسى قائلا فى مزاح لزج . « ربنا يطول جاكتتك » . وكنت ساعة ذاك أميل على مكتب رئيس مجلس الادارة أستمع منه الى بعض الملحوظات وكان هو يجلس على كرسى فوتى لصق المكتب. فضاق صدرى رغم اننى ابتسمت يومها كما ابتسم رئيس مجلس الادارة وأكمل المزحة السخيفة بأننى رجل لا أعتنى بمظهرى لان كل الصياع الآن يعتنون بمظهرهم ويصرفون عليه أموالا ثقيلة لا تدرى من أين حصلوا عليهـــــا . أما أنا فقد أكملت فى سرى ان مظهرى ليس أهم من الخبز والايجـــار والمواصلات والاولاد . فى غضب أغلقت الدولاب وقلت لنفسى ان رئيس مجلس الادارة كان يشتمنى لحظة ذاك بالتأكيد ولكن فى صورة مدح . فهـو يقصـــد أن ينبهنى الى أهمية الاعتناء بمظهرى . واننى من هذه الناحية يجب أن أكون على الاقل مثل الصياع المعتنين بمظهرهم .

صاح طفلى من خلفى لكننى تغافلت عن صيحته . وسعيت الى باب الشقة ففتحته بسرعة وقلت : « باى » ثم اندفعت خارجا ولكن شيئا من الاستفهام المندهش وقف على ملامح زوجتى فوقفت متلفتا . وقلت لها « ماذا هل تطلبين شـــيئا » فضحكت وهزت رأسها بالنفى وقالت « أبدا » فمشيت حتى بسطة السلم وأنا أتلفت ورائى فى كل خطوة وارى الضحك يفرقع فى صالة شقتى . وما كدت اهبط أول الدرج حتى زحف خيال زوجتى واستند على درابزين السلم . وقالت فى رقة شديدة ، وبلهجة الافلام والمسرحيات : هل تتأخر اليوم يا حبيبى ؟ واندفعت أضحك وأواصل الهبوط . ثم غامت الدنيا فى عينى . لم أر شيئا لكننى اعتذرت لـكثير من المارة . وتأسفت لكثير من الاطفال يبدو أننى اصطدمت بهم . وكنت حائرا واستغرقتنى مشكلة عويصة لم أعرف كيف كنت أحلها من قبل . تلك هى يدى . هل أطوحها ؟ هل أضعها فى جيبى ؟ هل أتركها تتفرغ لتحية الناس ؟ هل . هل . وخيل الى ان الشارع كله يترقبنى .

قابلت أحد الذين أقابلهم كل يوم على محطة الاتوبيس . اعرف انه موظف في الحكومة ويعرف انني موظف في القطاع العـــام . كنت أخجل من مظهري كلما رأيته لانه متأنق كما لو كان مرسوما بالفرجار والمسطرة . ما ان رآني حتى صفر بفمـــه وصاح « اش » وراح يتفحصني مبديا اعجابه بالترزي ويطلب عنوانه . عزمت عليـــه بسيجارة رغم علمي بأنه لا يدخن فأخذها ، بمناسبة بذلتي الجديدة . ثم نفث الدخان وقال فجأة :

ـ « ما رايك في القطاع العام ؟ » .

ثم حكم بأنني لا اقرا الجرائد . ولا ادرى بما يدور حولي ولما قلت له أنني أقرأ الجرائد وأعرف ان الكلام كثير حول القطاع العام والسد العالي ومشكلة كذا وكيت . قال ان القطاع العام ثبت فشله وقال ايضا انه تنبأ بهذه النتيجة من زمان . ثم قال كذلك ان هذا الـكلام لا ينبغي أن يحزنني فأنا لست القطاع العام . لكنني رأيت ناظر المحطة يتمشى خارج الكشك فانتهزت الفرصة وذهبت اليه . سألته عن الاتوبيس فشوح بيده في فروغ بال ولم يرد . اعطيته سيجارة . وأشعلتها له فقال ان جميع العربات الشغالة في الخط سحبت لنقل المتفرجين الى الاستاد . وطلب مني ألا أذيع هذا الخبر .

وكانت الساعة قد تجاوزت العاشرة حينما وصلت الى مقر عملي . احسست بعين الساعي تنغرس في ظهري . ولما نظرت اليه قال لي وهو يبتسم « ربنا يكرمك يا سعادة البيك .. ويوسعها عليك . اللهم لك ألف حمد وألف شكر » . ثم وسع لي الطريق . ولم يعجبني أدبه وكان الزميل محمود هو أول من قابلني . صاح بأعلى صوته وهـــو يعظني منحنيا في سماحة « يا أرض احفظي ما عليكي » . وراح يفرز البدلة بعينيه . هز راسه قائلا في اعجاب .

ـ حلوة . بس . .

ولوى شفتيه اشمزازا . .

ـ « القميص ليس هو . . لابد من خلعه » .

شوحت بيدي وسكت . قال :

ـ « انت وقعت على كنز . أم ماذا ؟ » .

وفتحت درج مكتبي وقلت له :

« البركة في التقسيط المريح » .

قال :

ـ « ليس معقولا » ..

ولما اندفع الضيق من وجهى رسم الجد على وجهه وطلب منى عنوان الترزى .

وجاء الزميل حامد . وهو مشهور بالاناقة فى شركتنا . وطلب منى أن أقف . وكان جادا ومهتما بالامر الى حد أرغمنى على الوقوف بل والاستجابة ليده التى ادارتنى ثم قال ان الترزى حمار فحرده الياقة من الخلف تحتاج الى غرزتين لضبطها . وغرزة الياقة فوق الصدر كان يجب أن تكون باليد لا بالماكينة . ثم ان البنطلون يجب ان يطول ثلاثة سنتيمترات . ثم اننى يجب أن اخلع هذا الحذاء فورا والقى به فى البالوعة . ثم اننى . وفى النهاية . يجب أن أقول . وبصراحة كيف وقعت على هذه القماشة الثمينة ؟ حكيت قصة الترزى ومدحت انسانيته . وكانت الحجرة قد بدأت تكتظ بكثير من الزملاء وعندما تكلمت عن التقسيط المريح راح بعضهم يتبادل النظر فى خبث .

فجأة انتبهت الى وجود الزميل ابراهيم كعادته تشبث بمكتبه كأنه بدونه لن يساوى شيئا . راقبت وجهه الطويل الممصوص فرأيت الدم فى وجهه ياخذ لون الفحم المحترق . وكان يفتح الدرج ويغلقه فى عصبية ، ثم ينكب على الاوراق ، وينهمك فى الكتابة . ثم يصفق ويطلب قهوة ويشعل السيجارة من الاخرى . بدأت أستخرج الاستمارات من درج مكتبى لارتبها فراحت نظراته تتسلل بين أوراقى وتربكنى . تذكرت اننى كنت أنوى نقل مكتبى من هذه الحجرة اكراما لخاطره فلم اعد أطيق نظراته الصفراوية التى تحرق دمى ولا أعرف سر العداء الذى فيها وتذكرت أيضا ان هذه الاستمارات ليست هى السبب . فكل الزملاء يعرفون ويثقون اننى قد ابتليت بها وكانت من قبل فى حوزته . وكنت أنا مستريحا من دوشتها وكثرة مشاكلها . لكنه لسانى الذى يستاهل القطع . كنت ما أفتأ أردد باستمرار ان الموظف الذى تناط به مسئولية عمل فيه اتصال مباشر بالجمهور عليه أن يكون حذرا ولبقا وخبيرا بنفسيات الجماهير . ويعلم الله اننى كنت أقول ذلك لاخفف على الزميل ابراهيم وقع الشكاوى التى ترف على رأسه من الناس الى رئيس مجلس الادارة . فاذا بسيادة رئيس مجلس الادارة يستدعينى ذات يوم قريب ويرمى على ظهرى مسئولية هذه الاستمارات .

بعد برهة طلبنى المدير العام . كان منشغلا فى أوراق . ودون أن يرفع رأسه أو يرانى قال : « مبروك » فعرفت ان خبر البذلة قد وصل اليه . ثم رفع رأسه وقد تهدلت على وجهه ابتسامة عريضة وصفراء . وراح يردد :

ـ « ما شاء الله ما شاء الله . أين كان يختبىء هذا العز ؟ » .

حكيت له حكاية الترزى . والتقسيط المريح . والكمبيالات فراح ينظر الى فى ارتياب ويهز رأسه . قلت :

ـ « أنا تحت أمرك » .

قال :

ـ « تأخرت اليوم » .

شرعت أحكى عن الاتوبيس . لكنه لوى شفتيه . وقال انه قد وصلته أنباء تفيد بأن معاملتى للجمهور ليست كما ينبغى . ضحكت فنظر الى باستغراب . قلت :

ـ « متى جاءتك هذه الانباء ؟ » .

قال :

ـ « اليوم آخرها » .

قلت له اننى أكون شاكرا له حسن صنيعه لو تفضل بسحب هذه الاستمارات واعادتها الى صاحبها الاصلى . فصمت برهة ثم أمرنى بالانصراف .

واشرأب ابراهيم برأسه وراح يستطلع وجهى بنظرات قلقة . ثم جاء الساعى يطلبنى لمقـــابلة رئيس مجلس الادارة . صاح سيادته مبتسما .

ـ « أش » .

وأمرنى بالجلوس . مالت راسه ناحيتى وقال :

ـ « أهذه أخرة ثقتى فيك ؟ » .

قلت :

ـ « ماذا حدث ؟ » .

قال :

ـ « انها مجرد اخبار . وأنت تعـرف اننى ممن يحبون التأكد بأنفسهم » .

قلت :

ـ « وما هى الاخبار التى وصلت سيادتكم عنى ؟ » .

قال :

ـ « لا تقلق هكذا .. » .

بحثت عن ريقى . قلت :

ـ « ها هى ذى الاتهامات تحاصرنى أنا الآخر » .

سحب ذقنه الغليظـــة فوق صدره . ولمع دبوس ذهبى فى الكرافت .

ـ « لم نتهمك . أقول فقط . لقد بلغنى » .

ضاق صدرى . قلت :

ـ « ماذا بلغك عنى ؟ » .

قال :

ـ « قل لى بصراحة . لماذا أنت مهزوز هكذا ؟ » .

وكان لابد ان أفك ربطة عنقى وزرار القميص أيضا لعل الهواء يدخل صدرى . ضحك وقال اننا الآن كأصدقاء . قلت :

ـ طبعا اننا الآن أصدقاء ما فى ذلك شك ؟ » .

قال بهدوء :

ـ « قل لى اذن ، ارى انك لست على ما يرام » .

قلت :

ـ « حقا . أنا الآن لست على ما يرام » .

اعتدل . أشعل البايب . قال :

« اذا صارحتنى فربما أساعدك . هل هو أمر خطير ؟ » .

اندفعت حبيبات العرق تبلل وجهى . قلت :

ـ « أى أمر ؟ » .

رمى البايب . قال :

ـ « انك لست صريحا . وأنا أسف لتدخلى فى شئونك . من الآن نحن لسنا أصدقاء » .

رحت أضغط على ركبتى بكوعى لاوقف ارتعاش ساقى . وأحسست بأننى لابد وأن أخلع الجاكت لعل ظهرى يتخفف من حملة الثقيل .

قال :

ـ هذه قماشة ثقيلة . من نوع جيد جدا . يبدو انه مستورد . لابد انها جاءتك هدية . أليس كذلك ؟

نظرت اليه ولم أتكلم . قال :
ـ « هى بالفعل قماشة تهدى . اذا كنت قد اشتريتها فعلا فلابد انك دفعت فيها سعرا باهظا .. كم دفعت فى تفصيلها يا استاذ راشد ؟ » .
شرعت أحكى قصة الترزى . والكمبيالات . لكننى لم أفعل . قال :
ـ هل العمل يمشى على ما يرام ؟
قلت :
ـ « الى حد ما » .
قال :
ـ « وانت .. بخير ؟ » .
قلت :
ـ « الحمد لله » .
قال :
ـ « تستطيع ان تراجع نفسك . فان وثقت فى معاونتى فسوف أكون مصغيا لك . رغم كل شىء » .
قلت :
ـ « ربنا لا يحرمنى منك » .
قال :
ـ اذا كانت المشكلة من قبيل المحاكم .. قضية مثلا .. أو ..
صحت فزعا :
ـ « قضية ؟ محاكم . يا للمصيبة » ..
ثم عالجت انفعالى بابتسامة ذات صوت :
ـ « يا سعادة البك .. لقد ضخمتم المسألة جدا وبلا سبب » ..
أشعل البايب فى هدوء .
ـ « هى اذن صغيرة .. لا بأس من النظر فيها أيضا » .
قلت :
ـ « ما هى ؟ » .
قال :
ـ « المسألة . لقد اعترفت ان هناك مسألة ولكنها ليست كبيرة » .
قلت :
ـ « أقسم انه لا شىء هناك على الاطلاق » .
رمى البايب فى غضب وقال اننى كاذب . ثم قال :

ـ الم يحكم عليك بالسجن ستة اشهر مع الشغل فى يوم ما .
كأن الارض خففت دورانها السريع . فأخذت دوائرها تلف ببطء . وكل معالم الاشياء تتحول الى مجرد لون يخطف البصر فى الدوائر المتهالكة . المتداخلة . واحسست بالصقيع يدب فى أحشائى . فأغلقت زرار القميص واحكمت ربطة الكرافت . وارتديت جاكتتى واغلقت زرارها العلوى وقلت :
ـ « نعم هذا حدث » .
أعجبتنى لهجتى فأضفت :
ـ « ومن المؤكد انكم تعرفون الحقيقة .. » .
وقلت له اننى كنت تلميذا وعيرنى احدهم بأننى ارتدى بنطلونه الذى اهدته امه لامى جزاء اعمال تقوم بها أمى فى بيتهم . ولم أكن اعرف انه بنطلونه او بنطلون غيره . لكننى شرخت راسه بالمسطرة الحديد ! . وقطعت رجله عن المدرسة أياما . وبعد سنوات فوجئت بالخفير النظامى يطلبنى لاننى متهرب من حكم السجن . وقالوا لى : عارض . فعارضت . والغى الحكم كأن لم يكن ..
هز راسه وابتسم . وهزها مرة اخرى لانصرف . لكنه استوقفنى عند الباب . وامرنى بتسليم العهدة الى صاحبها الاول .
وكنت اعتزم تسليمها من تلقاء نفسى . وكنت ايضا قد كرهت البذلة كره العمى وقررت الا ارتديها بعد ذلك مطلقا لكننى فى اليوم التالى رأيتنى ارتديها . واجاهد قدر الامكان ان اتلافي عيوب القميص والحذاء . والكرافت . ورايتنى انحرف إلي الطرقة اليمنى واقتحم حجرة رئيس مجلس الادارة فبادرنى قائلا :
ـ « هيه . سلمت العهدة ؟ » .
فقلت :
ـ لا . اننى لن اسلمها .
فارتكن بذقنه على كتفيه وراح ينظر الى . قال :
ـ « كيف ؟ » .
قلت :
ـ « هى عهدتى . ولن افرط فيها » .
ازدادت نظرته اتساعا . فظللت واقفـــا . ولما راح يتفحصنى رفضت أن أزرر جاكتتى .

---

* سنة ١٩٧٥

الحجح



المرجع

مثلما يدق جرس الحصص بانتظام ، ومثلما نواظب على الحضور يوميا ونتخذ مجالسنا خلف الادراج ، كان مدرس الفصل يواظب على توبيخى دون ملل، وكنت أواظب أيضا على هز الراس فى طاعة عمياء، والنظر حولى فى حرج شديد ، ومحاولة الامساك بالابتســـامة المعلقة على شفتى خوف أن تسقط أو تمحى وتنتصر الدموع .

يدخل المدرس سريعا كالقذيفة ، فجأة نجده أمامنا واقفا بطوله ووجهه الاحمر الحاد ، واضعا ذراعيه خلف ظهره ناظرا الينا بمـا يشبه التهديد والوعيد . فبعد أن ينداح صوت الصدمة ويضيع فى الانفاس اللاهثة ، وبعد أن تهدأ هذه الانفاس ، يفتح فمه بالعبارة المنتظرة :

ــ طلعوا المرجع .

فترتفع فى الحال موجة من الاصـــــــوات يحدثها انفتاح الادراج وانغلاقها ، ثم يستقر كتاب « المرجع » فوق كل الادراج الا درجى أنا وهو لسوء الحظ لصق مكتب المدرس مباشرة . مدرس الفصل يعرف مقدما أننى بلا نسخة من كتاب « المرجع » ، واننى كالعادة لم أتحرك ولم أفتح درجى ، يبعد نظرته عنى الى الفصل صائحا : « افتحوا على صفحة كـذا » . فتطقطق الصفحات ، ثم يتراجــع الى الوراء مرسلا الى نظرته المنكلة التى صرت اكرهها قدر ما أرهبها ، ثم انه يعاجلنى :

ــ أمال فين ياخوية المرجع بتاعك ؟

أتلعثم للمرة المليون ، أبلع ريقى الناشف احاول اختراع سبب جديد :

ــ أصل .. أصل يا أستاذ ربنا يخليك .. أبويا .. أبويا ..

فلا أعود أعرف ان كان ما أرتسم على وجه المدرس ابتساما أم كشفا عن الانياب ، أحس كأن مبنى المدرسة كلها فوق دماغى .. تروح كلمات المدرس تقرع رأسى تكاد تسيل دمى :

ــ يا شاطر ده علم مش هزار .. السنة قربت تخلص .. ثم ده كتاب ثمنه تلاتين قرش .. أمال لو ما كانش التعليم مجانا كنتوا

عملتوا ايه !؟ .. عايزين كل حاجة بلاش ؟ .. جتكم البلا .

ثم يسحب نظرة عنى فى قرف ، ثم يخطو بين الصفوف خطوة أو خطوتين ، ثم يرتد ناظرا الى :

ـ لازم تجيب المرجع يا شاطر أو ما تجيش .

ثم يقذف بالطباشيرة فى الارض يسحقها صائحا فيما يشير الى بعد :

ـ اقرأ يا ولد يا فلان .

ويشوح لى فى يأس قائلا :

ـ بص مع اللى جنبك .

فأكسر رقبتى ناحية جارى واروح أنظر فى مرجعه ..

أصبحت أعرف ماذا على أن أفعل حين يوبخنى المدرس هذا التوبيخ ، لكننى لم أكن أعرف ماذا على أن أفعل حين يمتنع جارى عن اشراكى فى النظر فى مرجعه ، ولذلك كنت دائم التودد اليه وابرطله بكل قطعة سكر أو عسلية تقع فى يدى ، فأصبح يعطى نفسه الحق فى تفتيش مخلاتى وجيوبى بحثا عن شىء يأخذه ، كل الاشياء التى أخذها منى كانت ميسورة الا ثمن كتاب « المرجع » ، وقد بكيت لابى وأمى عشرات المرات لكى يشتروا لى نسخة منه مثل بقية الاولاد . لكن بكائى أو تهديدى بالغياب لم يقنع أبى بأن المدرس يدرس لنا فى كتاب من خارج كتب الوزارة ، ويهدد بشكواه لحضرة الناظر بل ومفتش المنطقة ، فأقول له انه كتاب فيه كل العلوم التى ندرسها ولكنها مختصرة ومنظمة ، وان فيه نماذج من امتحانات السنوات السابقة والاجابة عليها ، وان كل الاولاد اشتروه ما عداى .. فلا يحرك أبى ساكنا ، بل يبسط يده قائلا فى فروغ بال :

ـ منين أجيب تلاتين قرش .. وعلى كل حال احنا ماودينكش المدرسة .. دا الففر جم خدوك مع اللى بيملوهم !

وكان لابد أن ارفع قامتى فى الفصل ، فصرت اذهب الى سوق البلد والاسواق المجاورة أساعد الناس فى حمل اشيائهم المشتراه ، فيعطوننى قروشا وملاليم أصرها فى طرف منديل اربطه على وسطى الى أن تجمع لدى ما يزيد على العشر قروش ، ذهبت بها الى ولد من ولدان السنة الماضية وطلبت ان يبيعنى مرجعه القديم . كان قد تهرأ وفقد غلافه وصفحات كثيرة من بداياته ونهاياته ، ولكنه كان حقيقة بين يدى ، حملته الى الدار فسهرت الليل كله افصل له غلافا

من الكرتون الصقه بالدقيق العلاقه ، حتى اذا ما أقبل الصبح ارتديت ثيابى واهتممت بنظافتها على غير العـــادة . حملته وحده بدون مخلاة ، وتأنقت فى ابرازه . وكان أول شىء فعلتــه ذلك اليوم أن هزأت بجارى وجررت مشكلة حتى شتمنى فمزقت له ثوبه وضربته بالبونية ثم خلصنا الجرس . وما ان دخلنـــا الفصل حتى وضعت المرجع على سطح الدرج ورحت أنتظر فى زهو دخول المدرس . لكن الوقت مر بطيئا ثقيلا مملا ، فات نصف الحصة ، واخيرا دخل رجل جديد لم نره من قبل أبدا ، قال أنه المدرس الجديد ، ثم قــال أنه سمع عن كتاب ندرس فيه اسمه « المرجع » فماذا يكون يا ترى ؟ .. فعلى الفور تطوعت بابرازه له قائلا فى زهو كبير : « أهو يا أستاذ » فتناوله واخذ يتصفحه ثم جلس وهو يسأل : « طب طلعوا صفحة كذا » . فطرطقت الصفحات وانفردت . وأشار المدرس لواحد بعيد وأمره أن يقرأ ثم نظر نحـــوى فى اعتذار قــائلا : « بص مع اللى جنبك ! » .

---

* ابريل سنة ١٩٧٦

فهــــرس

٣٠ قرشا

هذه الرواية

يعتبر « خيرى شلبى » أحد الاصوات المصرية الهامة فى حقل القصة والرواية العربيين التى ظهرت خلال السنوات العشرين الماضية ، حيث استطاعت قصصه القصيرة ورواياته الطويلة أن تعكس الحساسيات الجديدة ألتى طرأت على المجتمع المصرى والعربى خلال السنوات الاخيرة . وتمثل هذه المجموعة من القصص التى بين يديك احدى قمم التطور الذى وصلت اليه القصة العربية ، حيث نلاحظ أن الكاتب قد حاول جاهدا تقديم مستويات جديدة من الابداع القصصى فى قوالب جديدة مستنيرة تستفيد من الامكانيات الذاتية للشخصية العربية وقدرتها الفائقة على الحكى والقص فى اطار موضوعى حاد التقاطيع ، بقدر ماتستفيد من منجزات القصة العالمية كما يكتبها رواد هذا الفن الصعب فى كافة أنحاء العالم المتقدم . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد تناولت هذه القصص موضوعات شديدة الحيوية بالغة العمق ، كلها تتعلق بالشعب العربى وعلاقته بالتراث وبالعصر ، وتعكس الازمات الاجتماعية والتاريخية والانسانية التى عاناها الشعب المصرى فى فترة من أحرج فترات تاريخه المعاصر . وهى قصص من النوع الذى لايمكن حكاية موضوعاته ، ان أفضل شىء بالنسبة لها هو أن تقرأها ، وتقرأها بعمق وتدقيق، لان كل قصة تحمل تجربة فنية خاصة ، وكل تجربة فنية حبلى بتجربة انسانية أشد خصوصية .